الكتاب: بحوث قرآنية في التوحيد والشرك
المؤلف: الشيخ جعفر السبحاني
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

بحوث قرآنية
في
التوحيد والشرك
يبحث عن تحديد معالم التوحيد والشرك
مع تطبيقات عملية
تأليف
جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه المنتجبين.
أما بعد،
فهذه بحوث موجزة حول التوحيد والشرك في القرآن الكريم أقدمها إلى الجيل الصاعد من أبناء أمتنا الإسلامية بغية الحفاظ على كيانهم ووحدة كلمتهم وإنقاذهم من مخالب الشرك وهدايتهم إلى حظيرة التوحيد.
فإن الهدف الأسمى لجميع الرسل هو مكافحة الشرك وتحطيم قلاعه، قال سبحانه: * (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) *. (١)
وقد أضحت مسألة التوحيد والشرك من المسائل الهامة في عصرنا هذا، لا سيما وأنها صارت ذريعة لتشتيت الصفوف وتمزيق الوحدة الإسلامية، مع أن الواجب على كل مسلم الحفاظ على توحيد الكلمة وتعزيز أواصر الأخوة.
ويأتي الكلام في الموضوع ضمن مقدمة وفصول.

---

١. النحل / ٣٦.

المقدمة

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

بني الإسلام على كلمتين: " كلمة التوحيد " والشهادة على أنه لا إله إلا الله ونفي ألوهية وربوبية كل موجود سواه، و " توحيد الكلمة " والاعتصام بحبل الله المتين والنهي عن التفرق والتشتت وراء مسائل هامشية لا تمس - في كثير من الأحيان - جوهر الإسلام، ورائدنا في الدعوة إلى الوحدة وحفظ كيان الإسلام، قوله سبحانه: * (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) *. (١)

ولو سبرنا أقوال النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وسيرته العملية نلمس منها اهتماماته الكبيرة بتوحيد الكلمة ولم الشمل، فإن الوحدة هي دعامة القوة والرفاه ونيل السعادة، كما أن التفرقة هي بؤرة الضعف والشقاء والاندحار.

---

١. آل عمران / ١٠٣.

ولنقتصر من سيرته وكلامه " صلى الله عليه وآله وسلم " على الأمور التالية:

أ. قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم يثرب، والأوس والخزرج يقودان جمله وشبانهم يطوفون حوله وكانت القبيلتان هما الحجر الأساس لبناء الدعوة الإسلامية، ولكن كان بين الطائفتين قبل اعتناق الإسلام حروب طاحنة أسفرت عن مصرع العديد منهم وكانت البغضاء والعداوة متفشية بينهم، وفي تلك الظروف هبط عليهم النبي ورأى ضرورة رأب الصدع وتقريب الخطى بين القبيلتين بل جعلهما أخوين متحابين ومتراحمين.

فأول خطوة قام بها هي التآخي بينهما حسما لمادة الخلاف وإنساء للماضي. (١)

ب. انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق، فبينا رسول الله على مائهم نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري، فقال: يا معاشر الأنصار، وصرخ الآخر، وقال: يا معشر المهاجرين، فلما سمعهما النبي صقال: دعوها فإنها منتنة... (٢) يعني إنها كلمة خبيثة، لأنها من دعوى الجاهلية، والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيرهم حزبا واحدا، فينبغي أن تكون

---

١. الدر المنثور: ٢ / ٢٨٧، تفسير الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، نقل عن مقاتل بن حيان قبيلتين من قبائل الأنصار، إلى أن قال: فقدم النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " فأصلح بينهم.
إن هذه الآية نزلت في ٢. ابن هشام: السيرة النبوية: ٣ / ٣٠٣، غزوة بني المصطلق.

الدعوة في كل مكان وزمان لصالح الإسلام والمسلمين عامة، لا لصالح قوم ضد الآخرين، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يعزر.

فالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " يصف كل دعوة تشق عصا المسلمين وتمزق وحدتهم بأنها دعوى منتنة، وكيف لا تكون كذلك وهي توجب انهدام دعامة الكيان الإسلامي.

ج. نزل النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " دار هجرته والتفت حوله القبيلتان: الأوس والخزرج، فمر شاس بن قيس – الذي كان يحمل في قلبه ضغنا للمسلمين – على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأوس والخزرج في مجلس يتحدثون فيه، فغاظه عندما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله عندما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم أذكر يوم بعاث، يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعا.

دخل الشاب اليهودي مجتمع القوم فأخذ يذكر مقاتلتهم ومضاربتهم في عصر الجاهلية فأحيى فيهم حميتها حتى استعدوا للنزاع والجدال، وأخذ الشاب يؤجج نار الفتنة.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله بالإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر وألف به بين قلوبكم. (١)

وقد تركت كلمة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وقعا في نفوسهم، حيث فطنوا إلى أنها نزعة من نزعات الشيطان، فندموا على عندما

وقع منهم ثم انصرفوا.

إن كلمة الرسول، كشفت القناع عن الخدعة اليهودية، وأطفأت نار الفتنة في مهدها، ودخلت في القلوب المؤمنة وصيرتهم إخوانا متحابين.

هذه القصة وكم لها من نظير تعكس لنا المحاولات المستميتة التي يبذلها أعداء الإسلام بغية الإطاحة بوحدة المسلمين وتمزيق شملهم.

ولو كان في عصر الرسول شاس أو شاسان من اليهود، ففي الوقت الحاضر المئات بل الألوف منهم جندوا قواهم الشيطانية، وأثاروا النعرات الطائفية بين المسلمين من خلال طرح مسائل هامشية لتكدير صفوهم.

إن أساليب الأعداء في إثارة الفتن لا تعد ولا تحصى، ولهم مخططات مختلفة حسب عندما

تقتضيه الظروف والبيئات.

---

١. انظر السيرة النبوية: ١ / ٥٥٥ - ٥٥٦، ط عام ١٣٧٥ ه.

فالعقل يفرض على المسلمين رص صفوفهم، وتوحيد
كلمتهم بغية الوقوف أمام تلك الخطط والمؤامرات.
إن مسألة التوحيد ونبذ الشرك من المسائل الهامة التي تعد
الهدف الأسنى للأنبياء والمرسلين وكبار المصلحين. فالتوحيد رمز
الإسلام وعزة المسلمين.
هذا ومع الاعتراف بأهميته ولكن وجدت - من خلال البحث
في التوحيد والشرك - مسائل هامشية صارت ذريعة للاختلاف
ووسيلة للتشتت فآثرنا في هذه الرسالة المتواضعة استنطاق القرآن
الكريم في هذه المسائل والاستنارة بنور السنة النبوية التي اتفق
المسلمون على كونها المصدر الثاني للعقيدة والشريعة بعد الذكر
الحكيم.
وأخيرا ندعو المجتمع الإسلامي إلى عندما
دعا به القرآن الكريم،
وقال: * (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) *.
فالمسلمون ملة واحدة يجمعهم إله واحد، وكتاب واحد،
ودين واحد، وشريعة واحدة فما يجمعهم أكثر مما يفرقهم.
والجميع كما يقول شاعر الأهرام:
إنا لتجمعنا العقيدة أمة * ويضمنا دين الهدى أتباعا
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا * مهما ذهبنا في هوى أشياعا
جعفر السبحاني

الفصل الأول
تحديد الإيمان والكفر
الإيمان عبارة عن الإذعان بالله سبحانه واليوم الآخر ورسالة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " فهذه الأمور الثلاثة تشكل دعامات الإيمان وأركانه، وما سواها ترجع بشكل إليها.
نعم لما كان عندما خلف النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " من تراث في مجال المعارف والأحكام ضخما لا يمكن استحضاره في الضمير ثم التصديق به، اضطر العلماء إلى تقسيم عندما جاء به النبي إلى
قسمين: قسم معلوم بالتفصيل كتوحيده سبحانه والحشر يوم المعاد في مجال العقائد، ووجوب الصلاة والزكاة ونحوهما في مجال الأحكام، وقسم منه معلوم بالإجمال نعلم وروده في الكتاب والسنة، فلا محيص للمؤمن أن يؤمن بالأول على وجه التفصيل، وبالثاني على وجه الإجمال.
قال عضد الدين الإيجي: الإيمان: التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة وتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيها علم إجمالا. (١)

---

١. الإيجي، المواقف، ص ٣٨٤.

وبعبارة أوضح: أن عندما
جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إما أن يعلم به
بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة والجهاد والحج، وإما أن لا يعلم
به كذلك.
فالمؤمن هو الذي يعتقد بصحة كل عندما
بعث به الرسول " صلى
الله عليه وآله وسلم " إلى أمته، غير أن المعلوم بالضرورة، يؤمن به
تفصيلا وما لم يعلم، يؤمن به على وجه الإجمال.
ويظهر مما تقدم أن الإيمان يتجلى في أصول ثلاثة:
الأصل الأول: الإيمان بالله سبحانه وتوحيده.
الأصل الثاني: الإيمان بالآخرة وحشر الناس في اليوم
الموعود.
الأصل الثالث: الإيمان برسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء بها.
والاعتقاد بهذه الأصول الثلاثة يورث الإيمان ويدخل
الإنسان في حظيرته ويتفئ في ظلاله وظلال الإسلام.
هذا عندما
عليه علماء الإسلام دون فرق بين طائفة وأخرى، وقد
آثروا في ذلك عندما
روي عن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " في غير
واحد من المواقف.
١. روى الإمام علي بن موسى الرضا " عليهما السلام "، عن
آبائه، عن علي " عليهم السلام "، قال: " قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أمرت أن
أقاتل
الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا حرمت علي دماؤهم
وأموالهم ". (١)

---

١. البحار: ٦٨ / ٢٤٢.

٢. أخرج الشيخان، عن عمر بن الخطاب، أن عليا صرخ: يا رسول الله على ماذا، أقاتل؟ قالص: " قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ". (١)

٣. روى أبو هريرة أن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " قال:

" لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ". (٢)

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن محور الإسلام والكفر كلمة " لا إله إلا الله ومحمد رسول الله " ولو اقتصر في بعض على أصل واحد ولم يذكر المعاد وحشر الناس أو لم يذكر رسالته فلوضوحهما.

نعم، ليس الإيمان بالأصول الثلاثة فقط مورثا للسعادة، ومنقذا عن العذاب والعقاب، بل لا بد من انضمام العمل إليه واقترانه بامتثال أوامره ونواهيه في الكتاب والسنة، وذلك من الوضوح بمكان، وقد وردت في هذا الصدد روايات عديدة نقتصر على قليل منها:

١. روى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم ":

" بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا

---

١. صحيح البخاري: ١ / ١٠، كتاب الإيمان، صحيح مسلم: ٧ / ١٧، كتاب فضائل علي " عليه السلام ".
٢. الشافعي: الأم: ٦ / ١٥٧، اقرأ كلامه فيه حول هذا الموضوع.

رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم شهر رمضان ". (١)

٢. عندما روي عن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " متضافرا أنه قال:

" من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له عندما للمسلم وعليه عندما على المسلم ". (٢)

وعلى ضوء ذلك فالذي يميز المؤمن عن الكافر هو الاعتقاد بالأصول الثلاثة، وأما عندما يوجب السعادة الأخروية فهو في ظل العمل بالواجبات والانتهاء عن المحرمات.

ويشير إلى الأمر الأول عندما مر من الروايات التي تركز على العقيدة ولا تذكر من العمل شيئا. كما تشير إلى الأمر الثاني الروايات التي تركز على العمل وراء العقيدة.

إذا عرفت عندما يخرج الإنسان من الإيمان ويدخله في الكفر ، يعلم منه أنه لا يصح تكفير فرقة من الفرق الإسلامية عندما دامت تعترف بالأصول الثلاثة. وفي الوقت نفسه لا تنكر عندما علم كونه من الشريعة بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وأمثالهما.

هذا عندما نص عليه جمهور المتكلمين والفقهاء. (٣)

وها نحن نذكر بعض الشواهد على هذا الموضوع.

---

١. صحيح البخاري: ١ / ١٦، باب أداء الخمس من كتاب الإيمان.
٢. ابن الأثير: جامع الأصول: ١ / ١٥٨.
٣. لاحظ المواقف للإيجي: ٣٩٢.

١. قال ابن حزم عندما تكلم " فيمن يكفر ولا يكفر ":
" وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا، وإن كل من اجتهد في شئ من ذلك فدان بما رأى أنه الحق فإنه مأجور على كل حال، إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد. وهذا قول ابن أبي ليلى، وأبي حنيفة، والشافعي، وسفيان الثوري، وداود بن علي وهو قول كل من عرفنا له قولا في هذه المسألة من الصحابة (رضوان الله عليهم) عندما نعلم منهم في ذلك خلافا أصلا ". (١)

٢. وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: إن الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جدا، وكل من في قلبه إيمان، يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر. (٢)

٣. وقال أحمد بن زاهر السرخسي الأشعري: لما حضرت الوفاة أبا الحسن الأشعري في داري ببغداد أمر بجمع أصحابه ثم قال: اشهدوا على أنني لا أكفر أحدا من أهل القبلة بذنب، لأني رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمهم. (٣)

---

١. ابن حزم: الفصل: ٣ / ٢٩١.
٢. الشعراني:، اليواقيت والجواهر: ٢ / ١٢٥، ط عام ١٣٧٨ ه.
٣. الشعراني: اليواقيت والجواهر: ٢ / ١٢٦.

٤. وقال التفتازاني: إن مخالف الحق من أهل القبلة ليس بكافر ما لم يخالف عندما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد، واستدل بقوله: إن النبي ومن بعده لم يكونوا يفتشون عن العقائد وينبهون على عندما هو الحق. (١)

السنة النبوية وتكفير المسلم

قد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن تكفير المسلم الذي أقر بالشهادتين فضلا عمن يمارس الفرائض الدينية، وإليك طائفة من هذه الروايات:

١. بني الإسلام على خصال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله، والجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين... فلا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك ". (٢)

٢. أخرج أبو داود عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): " أيما رجل مسلم أكفر رجلا مسلما فإن كان كافرا وإلا كان هو الكافر ". (٣)

---

١. التفتازاني: شرح المقاصد: ٥ / ٢٢٧.
٢. كنز العمال: ١ / ٢٩، برقم ٣٠.
٣. سنن أبي داود: ٤ / ٢٢١، برقم ٤٦٨٧، كتاب السنة.

٣. أخرج مسلم، عن نافع، عن ابن عمر، أن النبي " صلى الله
عليه وآله وسلم " قال: " إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما ". (١)
٤. أخرج مسلم، عن عبد الله بن دينار، أنه سمع ابن عمر،
يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " أيما امرء قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها
أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه. (٢)
٥. عقد البخاري بابا باسم " المعاصي من أمر الجاهلية ولا
يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك "، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنك امرء فيك
جاهلية، وقول الله: * (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر عندما دون ذلك
لمن يشاء) *. (٣). (٤)
٦. أخرج الترمذي في سننه عن ثابت بن الضحاك، عن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم قال: " ليس على العبد نذر فيما لا يملك، ولا عن المؤمن كقاتله،
ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقاتله ". (٥)
٧. أخرج أبو داود عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

١. صحيح مسلم: ١ / ٥٦، باب " من قال لأخيه المسلم يا كافر " من كتاب الإيمان.
٢. صحيح مسلم: ١ / ٥٧، باب " من قال لأخيه المسلم يا كافر " من كتاب الإيمان، الإمام أحمد في مسنده: ٢ / ٢٢ و ٦٠ و ١٤٢، وأخرجه الترمذي في سننه: ٥ / ٢٢ برقم ٢٦٣٧، كتاب الإيمان. وأخرجه الإ؟؟
٣. النساء / ٤٨.
٤. صحيح البخاري: ١ / ١١، باب " المعاصي من أمر الجاهلية " من كتاب الإيمان.
٥. سنن الترمذي: ٥ / ٢٢ برقم ٢٦٣٦، كتاب الإيمان.

سرية إلى الحرقات، فنذروا بنا فهربوا فأدركنا رجلا فلما غشيناه قال:
لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه فذكرته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: " من لك بلا
إله إلا الله يوم القيامة؟ " قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها مخافة
السلاح والقتل، فقال: " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك
قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ " قال: فما زال يقولها
حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ. (١)
٨. لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: اعدل،
ثارت ثورة من كان في المجلس، منهم خالد بن الوليد قال: يا رسول
الله إلا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا، فلعله يكون
يصلي "
فقال: إنه رب مصل يقول بلسانه عندما
ليس في قلبه، فقال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم: " إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم ". (٢)
وعلى ضوء هذه الأحاديث المتضافرة والكلمات المضيئة
عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلمائنا السابقين المقتفين أثره يعلم أن تكفير
مسلم
ليس بالأمر الهين بل هو من الموبقات، قال سبحانه: * (ولا تكونوا
كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد عندما
جاءهم البينات وأولئك لهم
عذاب عظيم) * (٣)
لم يزل المسلمون منذ قرون غرضا لأهداف المستعمرين

---

١. سنن أبي داود: ٣ / ٤٥ برقم ٢٦٤٣، صحيح البخاري: ٥ / ١٤٤، باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من كتاب المغازي.
٢. صحيح البخاري: ٥ / ١٦٤، باب بعث علي وخالد بن الوليد من كتاب المغازي.
٣. آل عمران / ١٠٥.

ومخططاتهم في بث الفرقة بين صفوفهم وجعلهم فرقا وأمما متناحرة ينهش بعضهم بعضا، وكأنهم ليسوا من أمة واحدة كل ذلك ليكونوا فريسة سائغة للمستعمرين. وبالتالي ينهبوا ثرواتهم ويقضوا على عقيدتهم وثقافتهم الإسلامية بشتى الوسائل، ولأجل ذلك نرى أنه ربما يشعلون نيران الفتن لأجل مسائل فقهية لا تمس إلى العقيدة بصلة فيكفر بعضهم بعضا مع أن المسائل الفقهية لم تزل مورد خلاف ونقاش بين الفقهاء، فمثلا:

في مسألة قبض اليد اليسرى باليمنى أقوال فمن قائل بالاستحباب، إلى آخر قائل بالكراهة، إلى ثالث قائل بالتحريم. فلكل مجتهد رأيه فلا يجوز لفقيه أن يكفر فقيها أو اتباعه في مسألة القبض، وقس على ذلك مسائل كثيرة تعد من الأحكام وللاجتهاد فيها مجال واسع.

ونظير ذلك بعض المسائل العقائدية التي ليست من ضروريات الإسلام بل للعقل والاستدلال دور في تحقيقها، مثلا: عصمة الأنبياء قبل البعثة أو بعدها، أو حدوث القرآن وقدمه، أو صفاته تعالى عين ذاته أو زائد عليها، فليست هذه المسائل محور التوحيد والشرك والإيمان والكفر ولكل محقق، عقيدته ودليله ولا يجوز لآخر تكفيره، ويكفي في ذلك، الاعتقاد بما جاء به النبي إذا لم يكن من أهل التحقيق.

وبما ذكرنا يعلم أن تكفير طائفة، طائفة أخرى لمسائل فقهية أو عقائدية لم يثبت كونها من ضروريات الدين، أمر محظور وزلة لا تغتفر وخدمة للاستعمار الغاشم لا غير.

ونحن لا نريد الإطالة في الكلام وتكثير الأمثلة، وتكفي في الاطلاع دراسة وضع المسلمين وتشتتهم ضمن اختلاف بعضهم مع بعض في فروع فقهية أو عقائدية ليست من الضروريات.

الفصل الثاني
التوحيد، مراتبه وأقسامه

التوحيد ونبذ الشرك من أهم المسائل العقائدية التي تصدرت المفاهيم والتعاليم السماوية على الإطلاق، ويعد أساسا لسائر المعارف الإلهية التي جاء بها رسل الله في كتبهم وكلماتهم.

وبما أن للتوحيد مراتب بينها علماء الإسلام في كتبهم العقائدية نأتي بها على سبيل الإجمال ونردف كل قسم منها بآية أو آيات قرآنية ثم نبحث بإسهاب عن التوحيد في العبادة الذي هو آخر مراتبه.

فنقول: إن للتوحيد أقساما:

الأول: التوحيد في الذات

والمراد منه هو أنه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له، بل يمتنع أن يكون له نظير أو مثيل، قال سبحانه: * (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) *. (١)

---

١. الشورى / ١١.

وقال سبحانه: * (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد) *. (١)

الثاني: التوحيد في الخالقية

والمراد أنه ليس في صحيفة الوجود خالق غير الله سبحانه، ولا مؤثر سواه، وأن عندما في الكون من السماوات والأرض والجبال والبحار والعناصر والمعادن والنباتات والأشجار فهو مخلوق لله سبحانه، فوجودها وأفعالها وآثارها كلها مخلوقة لله تبارك وتعالى. فالشمس وحرارتها، والقمر وإنارته، والنار وإحراقه وغير ذلك من الفواعل والأسباب كلها مخلوقة لله تبارك وتعالى مع آثارها ومسبباتها، قال سبحانه: * (قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار) * (٢). وقال سبحانه: * (الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل) * (٣) وقال تعالى: * (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه) *. (٤) لكن جرت مشيئته على خلق الأشياء عن طريق أسبابها فكون العالم كله مخلوقا لله سبحانه ليس بمعنى إنكار علاقة السببية ، كما سيوافيك.

---

١. الاخلاص / ١ - ٤.
٢. الرعد / ١٦.
٣. الزمر / ٦٢.
٤. الأنعام / ١٠٢.

الثالث: التوحيد في الربوبية
والمراد منه أن للكون مدبرا واحدا متصرفا كذلك لا يشاركه في التدبير شئ فهو سبحانه المدبر الوحيد للكون على الإطلاق، قال سبحانه: * (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) * (١) وقال سبحانه: * (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر) *. (٢)
تجد أنه سبحانه يذكر بعد خلق السماوات والأرض، تدبير أمر الخلقة، وربوبيتها فيحصره في ذاته فلا مدبر ولا رب إلا هو، فيكون الخالق هو الموجد، والرب والمدبر لأمر الخلقة ودوامها واستمرارها.
نعم ثمة سؤال وهو أنه إذا لم يكن مدبر سواه فما معنى قوله سبحانه: * (فالمدبرات أمرا) * (٣) أو قوله تعالى: * (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) * (٤) فإن الحفظة جمع " الحافظ " وهم الذين يحفظون العباد ويدبرون شؤون حياتهم، أفهناك تناف بين هذا الإثبات والحصر السابق؟!

---

١. يونس / ٣.
٢. الرعد / ٢.
٣. النازعات / ٥.
٤. الأنعام / ٦١.

والجواب أن من كان ملما بحقائق القرآن وعارفا بلسانه يقف على عدم وجود أي تناقض وتناف بين ذلك النفي وهذا الإثبات، وذلك لأن الهدف من حصر التدبير بالله سبحانه هو حصره به على وجه الاستقلال، أي من يدبر بنفسه غير معتمد على شئ.

وأما المثبت لتدبير غيره، فيراد منه أنه يدبر بأمره وإذنه وحوله وقوته على النحو التبعي فكل مدبر في الكون من ملك وغيره فهو مظهر أمره ومنفذ إراداته.

وليس هذا بعزيز في القرآن ترى أنه سبحانه ينسب فعلا لنفسه وفي الوقت نفسه ينسبه لشخص آخر، ولا تناقض، لاختلاف النسبتين في الاستقلال والتبعية، قال سبحانه: * (الله يتوفى الأنفس حين موتها) * (١) وقال: * (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) *. (٢) فالتوفي على وجه الاستقلال هو فعله سبحانه، وأما التوفي بحوله وقدرته وإرادته وأمره فهو فعل الرسل.

وبعبارة أخرى: هناك فعل واحد وهو التوفي، ينسب إلى الله بنحو وإلى رسله بنحو آخر، دون أي تناف وتنافر بين هذين النسبتين.

ونظيره قوله سبحانه: * (والله يكتب عندما يبيتون) * (٣) وفي الوقت

---

١. الزمر / ٤٢.
٢. الأنعام / ٦١.
٣. النساء / ٨١.

نفسه يعتبر الملائكة كتبة الأعمال ويقول: * (بلى ورسلنا لديهم يكتبون) *. (١)
وبذلك تقف على معنى التوحيد في التدبير والتأثير، وليس معناه خلو كل موجود من التأثير وأن آثار الأسباب تفاض من الله سبحانه بلا واسطة، بل معناه أن الآثار والمسببات، للأسباب نفسها، فالشمس مضيئة، والقمر منير والنار محرقة حقيقة، ولكن بجعل منه سبحانه، فالجميع من مظاهر أمره وإرادته.
ومن زعم أن معنى التوحيد في الربوبية هو نفي الآثار عن الأسباب فقد نازع وجدانه، كما نازع الوحي المبين حيث إنه يثبت الأثر الطبيعي لكل سبب وفي الوقت نفسه يربطهما بالله سبحانه، قال: * (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) *. (٢)
تجد أن الوحي اعترف بسببية الماء لخروج الثمرات الطيبة وليست هذه الآية وحيدة في هذا الباب، بل في القرآن الكريم نماذج من هذا النوع، قال سبحانه: * (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) *. (٣)

---

١. الزخرف / ٨٠.
٢. البقرة / ٢٢.
٣. الرعد / ٤.

فتستدل الآية على أن تدبيره سبحانه فوق تدبير الفواعل الطبيعية، وذلك بشهادة أن الجنات تثمر أثمارا مختلفة مع وحدة الشرائط والظروف المحيطة بها من وحدة الماء والأرض، وهذا يدل على أن وراء الأمور الطبيعية والأسباب المادية مدبرا فوقها، وعلى الرغم من هذا الاعتراف إلا أنه لا ينفي تأثير العوامل الطبيعية من دون أن يراها كافية في خلق هذا التنوع.

هذا هو منطق القرآن في التوحيد والتدبير والربوبية، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب العقائدية.

الرابع: التوحيد في التشريع والتقنين

والمراد منه أن التشريع والتقنين للإنسان حق مختص بالله تبارك وتعالى فهو المشرع الوحيد للمجتمع الإنساني ولا يحق لأحد التقنين. قال سبحانه: * (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) * (١) والمراد من حصر الحاكمية بالله هو حصر الحاكمية التشريعية، فالآية تهدف إلى أنه لا يحق لأحد أن يأمر وينهى ويحرم ويحلل سوى الله سبحانه ولأجل أن المراد من الحكم المختص بالله سبحانه، هو التشريع أردفه بقوله: * (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) * فالمراد من الأمر هنا هو الأمر التشريعي.

وقال سبحانه: * (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله

---

١. يوسف / ٤٠.

حكما لقوم يوقنون) * (١) فالآية تقسم القوانين إلى: إلهية وجاهلية، وبما أن عندما
كان من صنع الفكر البشري ليس إلهيا فيكون حكما جاهليا البتة.
الخامس: التوحيد في الطاعة
والمراد أنه لا يجب طاعة سوى الله تعالى، فهو وحده يجب أن يطاع وأن تمتثل أوامره ونواهيه، وأما طاعة غيره فتجب بإذنه وأمره وإلا كانت محرمة موجبة للشرك في الطاعة، قال سبحانه: * (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) * (٢) والدين في الآية بمعنى الطاعة أي مخلصين الطاعة له ولا يطيعون غيره.
نعم تجب طاعة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " لأمره تعالى، قال سبحانه: * (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) *. (٣)
وفي آية أخرى عدت طاعة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " من مظاهر طاعة الله وقال: * (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) *. (٤)
وعلى ضوء ذلك فإطاعة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وأولي الأمر والوالدين إنما هو بإذنه وأمره سبحانه ولولاه لم تكن طاعتهم واجبة، بل ولا الانقياد لأوامرهم جائزة فهناك مطاع بالذات وهو الله وغيره مطاع بالعرض وبأمره.

---

١. المائدة / ٥٠.
٢. البينة / ٥.
٣. النساء / ٦٤.
٤. النساء / ٨٠.

السادس: التوحيد في الحاكمية
والمراد منه أن الحكم على الناس حق مختص بالله تبارك و تعالى، وحكومة الغير يجب أن تنتهي إلى الله تبارك وتعالى، وذلك لأن الحكومة والحاكمية في المجتمع لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال وتحديد الحريات وذلك فرع ولاية، للحاكم على المحكوم ولولاها لعد التصرف عدوانا ومما لا شك فيه أن الولاية لله المالك الحقيقي للإنسان الخالق له، والمدبر له، فلا يحق لأحد الإمرة على العباد إلا بإذن منه سبحانه.
قال سبحانه: * (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) *. (١) وقال سبحانه: * (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) * (٢) فالحكومة على الناس – سواء أكانت بصورة القضاء وفض الخصومة أو بصورة الإمرة – حق لله، وغيره يمارسها بإذنه وإلا فيكون من قبيل حكم الطواغيت الذي شجبه القرآن في أكثر من آية.
السابع: التوحيد في العبادة
والمراد منه حصر العبادة بالله سبحانه وهذا هو الأصل المتفق عليه بين جميع طوائف المسلمين فلا يكون المسلم مسلما

---

١. الأنعام / ٥٧.
٢. الأنعام / ٦٢.

إلا بعد الاعتراف بهذا الأصل، وشعار المسلمين الذي يرددونه كل يوم هو قوله سبحانه: * (إياك نعبد) * فعبادة غيره إشراك للغير مع الله في العبادة، موجبة لخروج المسلم عن ربقة الإسلام.

وثمة أمر آخر وهو أن الضابطة الكلية – حصر العبادة بالله سبحانه – أمر لا غبار عليه، لكن ثمة أمورا ربما يتصور أنها من قبيل العبادة لغير الله، وهذا عندما

سنتطرق إليه في الفصل الخامس، وعلى

ذلك فالنزاع ليس كبرويا بل صغروي، أي لا نزاع لأحد في أنه لا تجوز عبادة غيره، وإنما الكلام في أن هذا الأمر هل هو عبادة غيره سبحانه أو لا؟

مثلا هل إقامة الاحتفالات في الأعياد والمهرجانات الدينية عبادة لصاحب الذكرى، أو هو تكريم وتبجيل وتعظيم له، فلو كانت عبادة تكون محرمة وشركا بلا شك، ولو كان تكريما وتعظيما له يكون أمرا جائزا بل مستحبا.

وهناك أمثلة أخرى ستمر عليك في الفصل الخامس، غير أن المهم في المقام هو تفسير العبادة تفسيرا منطقيا وتحديدها تحديدا دقيقا ليعلم من خلالها عندما

هو الداخل تحتها أو الخارج عنها.

وهذا هو الذي يتكفل بيانه الفصلان التاليان. (١)

---

١. أحدهما يتضمن بيان حقيقة العبادة ومقوماتها والآخر يتضمن تعريف العبادة، والأول مقدمة للآخر.

الفصل الثالث

حقيقة العبادة ومقوماتها

إن مفهوم العبادة من المفاهيم الواضحة كالماء والأرض لكن مع وضوح مفهومهما ربما يصعب التعبير عن حقيقتهما في قالب الألفاظ.

وهكذا مفهوم العبادة من المفاهيم الواضحة مفهوما ومصداقا، ولكن ربما يصعب تحديدها تحديدا منطقيا يكون جامعا للأفراد ومانعا للأغيار مع وضوح مصاديقها غالبا.

فخضوع العاشق الولهان للمعشوق، أو الجندي لرئيسه، وشد الرحال إلى زيارة كبار الشخصيات كلها خضوع وخشوع وليست بعبادة.

والرجوع إلى اللغة لا يسمن ولا يغني من جوع، لأن أصحاب المعاجم لم يكونوا بصدد تحديد مفهوم العبادة حتى يتخذ عندما ذكروه مقياسا وتعريفا جامعا ومانعا. فإنهم فسروه بالخضوع والتذلل وما شابههما.

يقول ابن منظور في لسان العرب: أصل العبودية الخضوع

والتذلل.
ويقول الراغب في المفردات: العبودية: التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل.
وفي القاموس المحيط: العبادة: الطاعة.
إلى غير ذلك من التعاريف المتقاربة.
ومن المعلوم أن هذه تعاريف بالمعنى الأعم، إذ ليس مجرد الخضوع والتذلل ولا غايتهما حدا للعبادة، فإن حب العاشق للمعشوق لا يعد عبادة له، كما أن تقبيل المصحف الكريم ليس عبادة للكتاب، وأوضح من ذلك أن سجود الملائكة لآدم، كقوله سبحانه: * (فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى) * (١) وسجود النبي يعقوب " عليه السلام " وزوجه وأولاده ليوسف " عليه السلام "، كما في قوله سبحانه: * (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) * (٢) لم يك عبادة للمسجود له، أعني آدم أبا البشر ولا النبي يوسف " عليه السلام ".
وقد بلغ خضوع الصحابة للنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بمكان أنهم كانوا يتبركون بفضل وضوئه وشعر رأسه، والإناء الذي يشرب منه الماء، والمنبر الذي كان يجلس عليه، ومن الواضح أن هذا النوع من التبرك غاية الخضوع منهم للنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " ومع ذلك لم يبلغ حد العبادة ولم يصفهم أحد بأنهم كانوا

---

١. الحجر / ٣٠ - ٣١.
٢. يوسف / ١٠٠.

يألهون النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " ويعبدونه كل ذلك يجرنا إلى أن نقوم بتعريفها حتى يعم جميع المصاديق ويمنع عن دخول غيرها.

والطريق الواضح لحل هذه المعضلة هو الوقوف على مقومات العبادة وإمعان النظر في العبادات الصحيحة التي قام بها المسلمون على مر العصور، وفي العبادات والطقوس الباطلة التي كانت تمارس من قبل الوثنيين في الجاهلية والعصر الحاضر حتى نقف على الخصوصيات المكنونة في عمل الجميع والتي على ضوئها تطلق عليها عبادة، إذا فتحليل أعمالهم والوقوف على الميزات الموجودة فيها والخصوصيات الكامنة يوقفنا أولا على حقيقة العبادة، ويرسم لنا ثانيا تعريفا جامعا ومانعا على نحو يكون مقياسا لتمييز العبادة عن غيرها.

وإليك تحليلها:

لا شك أن الجامع بين جميع أقسام العبادات صحيحها وباطلها هو الخضوع للمعبود سواء أكان مستحقا له كالله سبحانه أو غير مستحق له كالأصنام والأوثان أو الأجرام السماوية من النجم والقمر والشمس والأرواح والمثل النورية المجردة، فالعبادة في جميع تلك المراحل تتمتع بالخضوع وهو عمل قائم بالجوارح كالرأس واليد وغيرهما، فالعابد يخضع بجل جوارحه أو بشئ منها أمام المعبود وهذا أمر لا سترة فيه.

ولكن هناك خصوصية أخرى موجودة في الجميع وهو أمر

قائم بالضمير والقلب ولعله الأساس لإضفاء العبادة على العمل الجارحي، وهي عبارة عن اعتقاد خاص بالمعبود الذي يكون مبدأ للخضوع الظاهري.

فالواجب علينا بيان تلك الخصوصية الموجودة في جميع الأقسام وإليك التوضيح:

أما الموحدون الذين يعبدون الله تبارك وتعالى، فخضوعهم نابع عن اعتقادهم بأنه خالق للكون والإنسان، والمدبر للعالم الذي بيده كل شئ في الدنيا والآخرة، وليس هناك أي خالق ومدبر ومالك لمصالح العباد ومصائرهم في العاجل والآجل سواه.

أما العاجل فيعتقدون أن الخلق والتدبير والإحياء والإماتة و إنزال المطر والخصب والجدب وكل عندما يعد ظاهرة طبيعية من فعله سبحانه لا من فعل غيره الذي لا يملك أي تأثير في مصير الإنسان.

أما الآجل فيعتقدون أن الشفاعة ومغفرة الذنوب وغيرهما من الأمور الأخروية بيده تعالى.

وعلى ضوء ذلك فالعبادة هو الخضوع النابع عن الاعتقاد بخالقيته ومدبريته وكون أزمة الأمور ومصير الإنسان في الدنيا والآخرة بيده.

هذا حال الموحدين وأما المشركون في عصر الرسالة وقبله وبعده فخضوعهم لمعبوداتهم كان نابعا عن اعتقاد خاص يضاد

ذلك، فاللازم هو تحصيل ذلك الاعتقاد.
يظهر من بعض الآيات أن العرب في العصر الجاهلي كانوا موحدين في الخالقية، قال تعالى: * (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) * (١) ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مشركين في التدبير الذي نعبر عنه بالربوبية، فكانوا يعتقدون بأرباب، مكان الرب الواحد، ولكل رب شأن في عالم الكون.
ويدل على ذلك طائفة من الآيات نذكر بعضها:
١. إن الموحد يرى أن العزة بيد الله سبحانه ومنطقه، قوله سبحانه: * (فلله العزة جميعا) *. (٢)
ولكن المشرك في عصر الرسالة كان يرى أن العزة بيد الأصنام والأوثان كما يحكي عن عقيدته قوله سبحانه: * (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) *. (٣)
٢. إن الموحد يرى أن النصر بيد الله تبارك وتعالى ويردد على لسانه، قوله سبحانه: * (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) *. (٤)
ولكن المشرك في عصر الرسالة كان يعتقد بأن النصر بيد

---

١. الزخرف / ٩.
٢. فاطر / ١٠.
٣. مريم / ٨١.
٤. آل عمران / ١٢٦.

الآلهة والأرباب المزيفة، قال سبحانه: * (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) *. (١)
٣. إن الموحد يؤمن بأن أمر التدبير بيد الله، قال سبحانه: * (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) *. (٢) كما أن بيده الجدب والخصب قال سبحانه: * (ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) *. (٣)
ولكن المشرك كان يستمطر بالانواء بل يستمطر بالأصنام.
يقول ابن هشام في سيرته: كان عمرو بن لحي أول من أدخل الوثنية إلى مكة وضواحيها، فقد رأى في مآب من أرض البلقاء من بقاع الشام أناسا يعبدون الأوثان وعندما سألهم عما يفعلون قائلا: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟
قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟
وهكذا استحسن طريقتهم واصطحب معه إلى مكة صنما كبيرا يقال له " هبل " ووضعه على سطح الكعبة المشرفة ودعا الناس

---

١. يس / ٧٤.
٢. لقمان / ٣٤.
٣. البقرة / ١٥٥.

إلى عبادته. (١)
٤. ثم إن الموحد يرى أن غفران الذنوب والشفاعة بيده سبحانه فليس هناك غافر للذنوب إلا الله سبحانه ولا شفيع إلا بإذنه، يقول سبحانه: * (فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) * (٢) وقوله سبحانه: * (قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض) *. (٣) وقال سبحانه: * (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) *. (٤)
وأما المشرك فكان يعتقد بأن الشفاعة بيد الآلهة والأرباب المزيفة، والشاهد عليه أن الآيات الماضية نزلت ردا على عقيدة المشركين حيث كانوا يعتقدون بأنهم مالكون مقام الشفاعة بتفويض من الله سبحانه ولأجل ذلك يؤكد على نفي تلك العقيدة في آيات أخرى، ويقول: * (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) * (٥) وقال: * (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) * (٦) وقال: * (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق) *. (٧)

---

١. انظر السيرة النبوية: ١ / ٧٦ - ٧٧.
٢. آل عمران / ١٣٥.
٣. الزمر / ٤٤.
٤. الزخرف / ٨٦.
٥. مريم / ٨٧.
٦. سبأ / ٢٣.
٧. الزخرف / ٨٦.

كما يرى أن مغفرة الذنوب بيد الآلهة والشاهد على ذلك (وصفه سبحانه) نفسه بأنه " غافر الذنب ". (١)

٥. إن الموحد يرى مصيره عاجلا وآجلا بيده سبحانه: وهذا هو إبراهيم الخليل رائد التوحيد يعلن عقيدته أمام الملأ من المشركين، يقول سبحانه حاكيا عنه: * (الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين) *. (٢)

ولكن المشرك يرى كل ذلك أو أكثره بيد آلهته وأربابه، كما يعرب عنه قوله سبحانه: * (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) * (٣) ويقول تعالى حاكيا عن لسان المشركين يوم الحشر عند ندمهم عن عبادة الآلهة، * (تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) *. (٤)

٦. إن الموحد يرى أمر التشريع والتحليل والتحريم بيده سبحانه، ويقول: * (إن الحكم إلا لله) *. (٥)

ولكن المشرك يرى أن التشريع بيد الأحبار والرهبان، قال

---

١. راجع غافر / ٣.
٢. الشعراء / ٧٨ - ٨١.
٣. البقرة / ١٦٥.
٤. الشعراء / ٩٧ - ٩٨.
٥. يوسف / ٤٠.

سبحانه: * (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) * (١) فقد كانوا على اعتقاد أن الأحبار والرهبان يملكون مقام التشريع فلهم أن يحلوا الحرام أو يحرموا الحلال بأخذ شئ من حطام الدنيا.
إلى غير ذلك مما يبين عقيدة المشركين في العصر الجاهلي ويكشف عن أن خضوع المشركين لم يكن خضوعا مجردا نابعا عن الحب المجرد بل ناجما عن عقيدة خاصة في الآلهة والأرباب، والاعتقاد بأن أمر التدبير بعضه أو كله بيدهم وأن مصيرهم موكول إليهم.
نعم لم تكن عقيدتهم في ربوبيتهم على درجة واحدة، بل كانت تختلف حسب اختلاف الظروف والشرائط.
فطائفة منهم تعتقد بسعة ربوبية الأرباب والآلهة كما كان عليه المشركون في عصر إبراهيم حيث كانوا يعتقدون بربوبية النجم والقمر والشمس للموجودات الأرضية كما حكاه سبحانه عنهم في عدة من الآيات، قال سبحانه: * (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين...) *. (٢)
وطائفة أخرى تعتقد بضيق ربوبية تلك الآلهة وتخصها

---

١. التوبة / ٣١.
٢. الأنعام / ٧٥ - ٨٠.

ببعض عندما
يمت إلى الإنسان بصلة كاختصاصهم بحق الشفاعة
والمغفرة والعزة والنصرة في الحروب إلى غير ذلك، ومن أراد
التفصيل فليرجع إلى كتب الملل والنحل. (١)
والذي كان يجمع المشركين في معسكر واحد هو اعتقادهم
بمالكية الآلهة شيئا من الربوبية وإدارة الكون وحياة الإنسان.
ونلفت نظر القارئ إلى بعض النماذج مما أثر عن المشركين
في مجال عقيدتهم.
قال زيد بن عمرو بن نوفل الذي ترك عبادة الأصنام قبل أن
يبعث النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " حيث يحكي عن عقيدته في
الجاهلية ويقول:
أرب واحد أم ألف رب * أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا * كذلك يفصل الجلد الصبور
للا عزى أدين ولا ابنتيها * ولا صنم بني عمرو أزور
ويقول أيضا:
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه * إله ولا رب يكون مداينا (٢)

---

١. الشهرستاني: الملل والنحل: ٢ / ٢٤٤.
٢. الآلوسي: بلوغ الإرب: ٢ / ٢٤٩.

هذه الأشعار وسائر الكلمات المروية قبل مبعث النبي تثبت أمرا واحدا، وهو أن آلهتهم كانت تتمتع حسب عقيدتهم بقوة غيبية مالكة لها مؤثرة في الكون ومصير الإنسان، وأن هؤلاء آلهة وأرباب والله سبحانه إله الآلهة ورب الأرباب.

ويمكن أن نتطرق إلى المواقف التي اتخذوها أمام أصنامهم وأوثانهم من خلال استعراض الآيات التي تندد بالمشركين وتشجب عملهم.

١. * (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) *. (١)

٢. * (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) *. (٢)

٣. * (ولا تدع من دون الله عندما لا ينفعك ولا يضرك) *. (٣)

٤. * (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) *. (٤)

٥. * (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور) *. (٥)

---

١. الأعراف / ١٩٤.
٢. الإسراء / ٥٦.
٣. يونس / ١٠٦.
٤. فاطر / ١٤.
٥. الملك / ٢٠.

٦. * (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منها يصحبون) *. (١) إلى غير ذلك من الآيات المنددة بعمل المشركين حيث تجد أنه سبحانه يرشدهم إلى الحقيقة الناصعة ويبطل عقيدتهم المزيفة بالحجج التالية:

أ. إنهم * (عباد أمثالكم) * فلا ربوبية لهم كلا أو بعضا.

ب. * (فلا يملكون كشف الضر) * فلا ربوبية لهم حتى يكشفوا الضر عنكم.

ج. لا ينفعون ولا يضرون، ولا يسمعون فكيف تعبدونهم؟

كل ذلك يكشف عن أن المخاطبين كانوا على اعتقاد راسخ بأن للآلهة قدرة غيبية فوق الإنسان وأن زمام كشف الضر بأيديهم فينفعون ويضرون.

إلى هنا تبين أن حقيقة العبادة قائمة بأمرين:

الأول: يرجع إلى جوارح الإنسان المشعرة بالتعظيم والخضوع.

الثاني: يرجع إلى عقيدة الخاضع في حق المخضوع له بنحو من الأنحاء من كونه خالقا أو ربا أو من بيده مصير الإنسان كلا أو جزءا فلا تتحقق مفهوم العبادة إلا بتحققهما.

نعم يبقى هنا سؤال وهو أن العرب في العصر الجاهلي لو

---

١. الأنبياء / ٤٣.

كانوا معتقدين بربوبية الآلهة، فلماذا يحكي عنهم ا لقرآن بأن عبادتهم كانت لأجل التقرب بعبادتهم إلى الله فقط لا غير، قال سبحانه: * (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في عندما هم فيه
يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) *. (١)
حيث يحكي عنهم سبحانه قولهم: * (عندما
نعبدهم إلا ليقربونا إلى
الله زلفى) * أي يقولون: نحن لا نعدهم مؤثرين في حياتنا ومصيرنا وإنما نعبدهم لنتقرب بعبادتهم إلى الله.
والجواب: أنه لا شك حسب عندما
مر من الآيات أنهم كانوا
يتخذونهم آلهة وأربابا وكانوا يستمطرون ويعتزون بهم إلى غير ذلك من صفات الآلهة، ومع ذلك كيف يمكن أن تحصر عبادتهم في طلب التقرب إلى الله، وهذا يدلنا إلى القول بأنهم كانوا يقولون في ألسنتهم عندما
ليس في قلوبهم ولذلك نرى أنه سبحانه يقول في ذيل
الآية * (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) * مشيرا إلى أنهم كاذبين في ذلك المدعى وإنما يعبدونهم لغايات دنيوية، وهو اكتساب العزة والنصرة والخصب والنعمة والشفاء والشفاعة.
وحيث إنه طال الكلام في هذا الفصل الذي تناولنا فيه بيان مقومات العبادة نحيل تعريفها إلى الفصل اللاحق.

---

١. الزمر / ٣.

الفصل الرابع
تعريف العبادة
إذا وقفت على مقومات العبادة، فيكون من السهل تعريف العبادة تعريفا منطقيا جامعا للأفراد ومانعا للأغيار بأحد التعاريف التالية:
التعريف الأول
العبادة هي الخضوع عن اعتقاد بألوهية المعبود، فما لم يكن القول والعمل ناشئين من الاعتقاد بالألوهية، لا يكون الخضوع والتعظيم والتكريم عبادة.
والذي يجب أن نلفت نظر القارئ إليه، هو أن المراد من الألوهية ليست المعبودية كما هو الرائج في الألسن، بل المراد منها الاعتقاد بكونه إله العالم وخالقه ومدبره وأن أزمة الأمور كلها أو بعضها بيده، فهذا هو المراد من الإله، والألوهية، فلفظ الإله كلي و (الله) لفظ الجلالة علم، فليس بينهما فرق إلا بالكلية والجزئية.

والذي يدل على ذلك (الخضوع النابع عن الاعتقاد بالألوهية)
أن بعض الآيات تأمر بعبادة الله وتنهى عن عبادة غيره مدللا بأنه لا
إله غيره، يقول: * (يا قوم اعبدوا الله عندما
لكم إله غيره) *. (١)
ومعنى ذلك أن الذي يستحق العبادة من كان إلها وليس هو إلا
الله، عندئذ كيف تعبدون عندما
ليس بإله حقيقة وإنما تدعون له
الألوهية؟ وكيف تنبذون عبادة الله وهو الإله الذي يجب أن يعبد
دون سواه؟ وقد وردت هذه الآية بنصها أو مضمونها في كثير من
الآيات. (٢)
فهذه التعابير تفيد أن العبادة هي ذلك الخضوع والتذلل
النابعين من الاعتقاد بألوهية المعبود، إذ نلاحظ - بجلاء - كيف
استنكر القرآن على المشركين عبادة غير الله بأن هذه المعبودات
ليست آلهة وأن العبادة من شؤون الألوهية. وحيث إن هذا الوصف
لا يوجد إلا في الله سبحانه لذلك تجب عبادته دون سواه.
التعريف الثاني
العبادة هي الخضوع أمام من يعتقد أنه رب يملك شأنا من
شؤون وجوده وحياته وشؤونه في آجله وعاجله.
سواء كان أمرا ماديا كالعزة والنصر، أم معنويا كمغفرة
الذنوب.

---

١. الأعراف / ٥٩.
٢. وللقارئ الكريم أن يراجع في ذلك الآيات التالية: الأعراف / ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود / ٥٠، ٦١، ٨٤، الأنبياء / ٢٥، المؤمنون / ٢٣، ٣٢، طه / ١٤.

والمقصود من الرب، هو المالك لشؤون الشئ، المتكفل لتدبيره وتربيته، ولذلك تكون العبودية في مقابل الربوبية.
ويدل على ذلك طائفة من الآيات التي تعلل الأمر بحصر العبادة في الله وحده بأنه الرب لا غير، وإليك بعض هذه الآيات:
* (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) *. (١)
* (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) *. (٢)
* (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) *. (٣)
وقد ورد مضمون هذه الآيات في آيات أخرى هي: يونس: ٣، الحجر: ٩٩، مريم ٣٦، ٦٥، الزخرف: ٦٤.
وعلى كل حال فإن أوضح دليل على هذا التفسير للفظ العبادة هو الآيات التي سبق ذكرها.
التعريف الثالث
العبادة هي الخضوع أمام من نعتقد أنه إله العالم، أو من فوض إليه أعماله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة التي تعد من الأفعال الكونية أو التقنين والتشريع وحق الشفاعة والمغفرة التي تعد من

---

١. المائدة / ٧٢.
٢. الأنبياء / ٩٢.
٣. آل عمران / ٥١.

الأفعال التشريعية.
إن الموحد يعبد الله سبحانه بما أنه قائم بهذه الأفعال، من دون أن يفوض شيئا منها إلى مخلوقاته، ولكن المشركين مع اعتقادهم بأن آلهتهم وأربابهم مخلوقون لله تبارك وتعالى، لكن كانوا على اعتقاد أنه فوض إلى الآلهة أمور التكوين والتشريع كلها أو بعضها، فلذلك كانوا يستمطرون بالأنواء والأصنام ويطلبون الشفاعة منهم بتصور أنهم مالكون لحق الشفاعة، ويطلبون منهم النصرة والعزة في الحرب بزعم أن الأمر بيدهم وأنه فوض إليهم.
وعلى ضوء هذه التعاريف الثلاثة يظهر الفرق الجوهري بين التوحيد في العبادة والشرك فيها، فكل خضوع نابع عن اعتقاد خاص بإلهية المخضوع له وربوبيته أو تفويض الأمر إليه فهو عبادة للمخضوع له سواء كان ذلك الاعتقاد الخاص في حق المعبود حقا – كما في الله سبحانه – أو باطلا كما في حق الأصنام. وعلى كل تقدير فالخضوع الناجم عن هذا النوع من الاعتقاد، عبادة للمخضوع له.
وأما لو كان الخضوع مجردا عن هذه العقيدة فهو تعظيم وتكريم، وليس بعبادة، ولا يكون الخاضع مشركا، ولا عمله موصوفا بالشرك، غاية الأمر ربما يكون حلالا كما في الخضوع أمام الأنبياء والأولياء ومن وجب له حق بالتعليم والتربية، وربما يكون حراما كالسجود أمام النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والولي " عليه السلام " وغيرهما لا لأنه عبادة للمسجود له، بل لأنه لا يجوز السجود لغيره سبحانه وأن السجود خضوع لا يليق بغيره.

وبمثل هذا البيان تتميز العبادة عن التعظيم، فتقبيل المصحف وضرائح الأنبياء وما يمت إليهم بصلة إذا كان فارغا عن اعتقاد الألوهية والربوبية والتفويض فهو ليس عبادة للمخضوع له.
إذا عرفت تلك الضوابط فلنتناول بالبحث الموضوعات الخاصة التي ربما يتصور أنها شرك وعبادة لغير الله أو أنها بدعة دخلت في الدين أو حرام كسائر المحرمات، ويأتي كل ذلك في ضمن الفصل الآتي.

الفصل الخامس
تطبيقات على ضوء تعريف العبادة
ينطوي هذا الفصل على مسائل صارت ذريعة للاختلاف والتشتت، وهي لا تمس العقيدة بصلة، وإنما هي مسائل فقهية تستنبط أحكامها من الكتاب والسنة وهذه المسائل هي كالتالي:

١. زيارة القبور.
٢. شد الرحال إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
٣. البناء على القبور.
٤. بناء المساجد على القبور والصلاة فيها.
٥. التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين وأقسامه.
٦. انتفاع الموتى بأعمال الأحياء والنذر لهم.
٧. التبرك بآثار الأنبياء والصالحين.
٨. الاحتفال بميلاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
٩. البكاء على الميت.
١٠. الحلف على الله بحق الأولياء.
١١. الحلف بغير الله سبحانه.
١٢. تسمية المواليد بإضافة العبد إلى غير الله سبحانه.

وإليك البحث فيها واحدة تلو الأخرى:

- ١ -

زيارة القبور (١)

إن زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامة، لأن مشاهدة المقابر التي تضم في طياتها مجموعة كبيرة من رفاة الذين عاشوا في هذه الحياة، ثم انتقلوا إلى الآخرة، تؤدي إلى الحد من الطمع والحرص على الدنيا، وربما يغير سلوك الإنسان فيترك الظلم والمنكر ويتوجه إلى الله والآخرة.

لذا يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: " زوروا القبور فإنها تذكركم بالآخرة ". (٢)

نعم يستفاد من بعض الأحاديث أن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " نهى يوما عن زيارة القبور ثم رخصها، ولعل النهي كان لملاك آخر، وهو أن أكثر الأموات - يومذاك - كانوا من المشركين،

---

١. إن زيارة القبور من المسائل الفرعية الفقهية، ولا تمت إلى العقيدة الإسلامية قبيلمام أحمد في؟؟؟ وهذه المسألة شأن سائر المسائل يرجع فيها إلى الكتاب والسنة حتى يعلم جوازها أو عدم جوازها. بصلة، ولا يتهم القائل بجوازها بالشرك، ٢. شفاء السقام: ١٠٧.

فنهى النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " عن زيارتهم، ولما كثر المؤمنون بينهم رخصها بإذن الله عز وجل، وقال: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة ". (١)

وقالت عائشة: إن رسول الله رخص في زيارة القبور، وقالت: إن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " قال: أمرني ربي أن آتي البقيع وأستغفر لهم. قلت: كيف أقول يا رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم "؟

قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، إنا إن شاء الله بكم لاحقون. (٢)

وجاء في الصحاح والمسانيد صور الزيارات التي زار بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم البقيع.

قال مؤلف كتاب " الفقه على المذاهب الأربعة ": زيارة القبور مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة وتتأكد يوم الجمعة، وينبغي للزائر الاشتغال بالدعاء والتضرع، والاعتبار بالموتى، وقراءة القرآن للميت فإن ذلك ينفع الميت على الأصح، وبما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور: " السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون " ولا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبة أو بعيدة (٣) بل يندب السفر لزيارة الموتى خصوصا مقابر الصالحين.

---

١. سنن ابن ماجة: ١ / ١١٧، باب عندما جاء في زيارة القبور.

٢. لاحظ صحيح مسلم: ٢ / ٦٤، باب عندما يقال عند دخول القبور.

٣. إلا الحنابلة فقالوا إذا كانت القبور بعيدة فزيارتها مباحة لا مندوبة.

هذه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة حول زيارة القبور. (١)

زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

هذا كله حول زيارة قبور المسلمين، وأما زيارة قبر النبي وأئمة الإسلام والشهداء والصالحين فلا شك أن لزيارتهم نتائج بناءة نشير إليها، كما نشير إلى الأحاديث الواردة حول زيارة قبورهم ليكون البحث مرفقا بالتحليل وجامعا للدليل.

أما التحليل: إن زيارة مراقد هذه الشخصيات هو نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم وإعلام للجيل الحاضر بأن هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى، والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة، وهذا لا يدفعنا إلى زيارة قبورهم فحسب، بل إلى إبقاء ذكرياتهم حية ساخنة، والمحافظة على آثارهم وإقامة المهرجانات، في ذكرى مواليدهم، وعقد المجالس وإلقاء الخطب المفيدة في أيام التحاقهم بالرفيق الأعلى، وهذا شئ يدركه كل ذي مسكة.

ولأجل ذلك ترى أن الأمم الحية يتسابقون في زيارة مدفن رؤسائهم وشخصياتهم الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل نجاة الشعب، وإنقاذه من مخالب المستعمرين والظالمين، ويقيمون المجالس لإحياء معالمهم، دون أن يخطر ببال أحد أن هذه الأمور

---

١. الفقه على المذاهب الأربعة: ١ / ٥٤٠.

عبادة لهم، فأين التعظيم للشخصيات من عبادتهم، فإن التعظيم تقدير لجهودهم، والعبادة تأليههم واتخاذهم أربابا. أفهل هناك من يخلط بين الأمرين منا أو من غيرنا؟! كلا، لا، شريطة الإمعان في مقومات العبادة وتعريفها الماضيتين في الفصلين السابقين.

إذا وقفت على الآثار البناءة لزيارة مطلق القبور وزيارة قبور الأولياء والصالحين، نذكر خصوص عندما ورد من الروايات التي جاء فيها الحث على زيارة قبر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. أخرج أئمة المذاهب الأربعة وحفاظها في الصحاح والمسانيد أحاديث جمة في زيارة قبر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " نذكر شطرا منها:

١. عن عبد الله بن عمر مرفوعا: من زار قبري وجبت له شفاعتي.

٢. عن عبد الله بن عمر مرفوعا: من جاءني زائرا لا تحمله إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة.

٣. عن عبد الله بن عمر مرفوعا: من حج فزار قبري بعد وفاتي كمن زارني في حياتي.

٤. عن عبد الله بن عمر مرفوعا: من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني.

٥. عن عمر مرفوعا: من زار قبري أو من زارني كنت له شفيعا أو شهيدا.

٦. عن حاتم بن أبي بلتعة مرفوعا: من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي.
٧. عن أبي هريرة مرفوعا: من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي، ومن زارني كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة.
٨. عن أنس بن مالك مرفوعا: من زارني في المدينة محتسبا كنت له شفيعا.
٩. عن أنس بن مالك: من زارني ميتا فكأنما زارني حيا، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، وما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر.
١٠. عن ابن عباس مرفوعا: من زارني في مماتي كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدا، أو قال شفيقا.
فهذه أحاديث عشرة أخرجها الحفاظ من المحدثين، وقد جمع أسانيدها وطرقها وصححها تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ ه) في كتاب شفاء السقام في زيارة خير الأنام فمن أراد التفصيل فليرجع إليه. (١)

---

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، الباب الأول في الأحاديث الواردة في زيارته، ولاحظ أيضا وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى: ٤ / ١٣٣٦.

ونظم الشيخ شعيب الحريفيش في " الروض الفائق " هذا المعنى في قصيدة مطلعها:

من زار قبر محمد * نال الشفاعة في غد
بالله كرر ذكره * وحديثه يا منشدي
واجعل صلاتك دائما * جهرا عليه تهتدي
فهو الرسول المصطفى * ذو الجود والكف الندي
وهو المشفع في الورى * من هول يوم الموعد
والحوض مخصوص به * في الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا * عندما
لاح نجم الفرقد (١)

---

١. الروض الفائق: ٢ / ٢٣٨.

- ٢ -

شد الرحال إلى زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

كان الكلام في استحباب زيارة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " للحاضر في المدينة، وأما استحباب السفر للغائب عنها فيدل عليه أمور:

الأول: عندما ورد في الأحاديث من الحث على زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنها بين صريح في الغائب أو مطلق يعم المقيم والمسافر والحاضر والغائب.

فمن القسم الأول عندما رواه عبد الله بن عمر، عن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أنه قال:

من جاءني زائرا لا تحمله إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة.

فهذا صريح في الغائب وغيره.

الثاني: سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنه كان يشد الرحال إلى زيارة قبور شهداء أحد.

أخرج أبو داود عن ربيعة - يعني ابن الهدير - عن طلحة بن عبيد الله، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد قبور الشهداء حتى

إذا أشرفنا على حرة وأقم (١) فلما تدلينا منها وإذا بقبور بمحنية (٢)، قال: قلنا يا رسول الله: أقبور إخواننا هذه.
قال: قبور أصحابنا، فلما جئنا قبور الشهداء، قال: هذه قبور إخواننا. (٣)
الثالث: إطباق السلف والخلف على شد الرحال إلى زيارة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم "، لأن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته ومنهم من يفعل ذلك قبل الحج.
قال السبكي: هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة... وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أن ذلك قربة وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مر السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عز وجل، ومن تأخر عنه من المسلمين فإنما يتأخر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه ووده لو تيسر له، ومن ادعى أن هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأ فهو المخطئ.

---

١. الحرة: الأرض ذات الحجارة، وأقم: أطم من آطام المدينة وإليه تنسب الحرة.
٢. المحنية: انعطاف الوادي.
٣. سنن أبي داود: ٢ / ٢١٨ برقم ٢٠٤٣، آخر كتاب الحج.

وما ربما يقال من أن سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أخرى وهو الصلاة في المسجد، باطل جدا، فإن المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة في أمر البديهة، فمن عرف الناس، عرف أنهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلا ببال قليل منهم، ولهذا قل القاصدون إلى البيت المقدس مع تيسر إتيانه، وإن كان في الصلاة فيه من الفضل عندما
قد عرف، فالمقصود الأعظم في المدينة، الزيارة كما أن المقصود الأعظم في مكة، الحج أو العمرة وهو المقصود، وصاحب هذا السؤال إن شك في نفسه فليسأل كل من توجه إلى المدينة ما قصد بذلك؟ (١)
الرابع: إنه إذا كانت الزيارة قربة وأمرا مستحبا على الوجه العام أو الخاص، فالسفر وسيلة القربة، والوسائل معتبرة بالمقاصد فيجوز قطعا.
الخامس: عندما
نقله المؤرخون عن بعض الصحابة والتابعين في
هذا المجال.
١. قال ابن عساكر: إن بلالا رأى في منامه النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وهو يقول له: عندما
هذه الجفوة يا بلال، أما آن لك أن
تزورني يا بلال؟ فانتبه حزينا، وجلا خائفا، فركب راحلته وقصد

---

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام لتقي الدين السبكي: ٨٥ - ٨٦، ط بولاق مصر، وانظر الطبعة الرابعة: ٢١١ - ٢١٢ بتلخيص.

المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، وأقبل الحسن والحسين - رضي الله عنهما - فجعل يضمهما
ويقبلهما فقالا له يا بلال: نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم "، في السحر ففعل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: " الله أكبر - الله أكبر " ارتجت المدينة، فلما أن قال: " أشهد أن لا إله إلا الله " ازدادت رجتها، فلما أن قال: " أشهد أن محمدا رسول الله " خرجت العواتق من خدورهن فقالوا: أبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! فما رئي يوم أكثر باكيا ولا باكية بعد رسول الله من ذلك اليوم. (١)

٢. أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصدا من الشام إلى المدينة ليقرئ النبي السلام ثم يرجع. (٢)

قال السبكي: فسفر بلال في زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبد العزيز في زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة، لم يكن إلا للزيارة والسلام على النبي ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك لا من أمر الدنيا ولا من أمر الدين، لا من قصد المسجد ولا من غيره. (٣)

٣. إن عمر لما صالح أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير

---

١. تاريخ ابن عساكر: ٧ / ١٣٧ في ترجمة إبراهيم بن محمد، برقم ٤٩٣.
٢. شفاء السقام، ص ١٤٢. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان كما نقله في الصارم المنكي: ٢٤٦، لاحظ تعليقة شفاء السقام.
٣. شفاء السقام: ١٤٣، ط الرابعة.

معي إلى المدينة وتزور قبر النبي وتتمتع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة أول عندما
بدأ بالمسجد وسلم على
رسول الله. (١)
٤. ذكر ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في " مثير الغرام الساكن "، بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وزرته وسلمت بحذائه، فجاءه أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتابا صادقا، قال فيه: * (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) *. (٢)
وإني جئتك مستغفرا ربك ذنوبي، مستشفعا بك إلى الله ثم
بكى وأنشأ يقول:
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم
وقد ذيله أبو الطيب أحمد بن عبد العزيز بأبيات وقال:
وفيه شمس التقى والدين قد غربت * من بعد عندما
أشرقت من نورها الظلم
حاشا لوجهك أن يبلى وقد هديت * في الشرق والغرب من أنواره الأمم (٣)

---

١. فتوح الشام، ج ١، " صلى الله عليه وآله وسلم " ١٤٨، باب فتح القدس.
٢. النساء / ٦٤.
٣. شفاء السقام: ١٥١ - ١٥٢.

سؤال وإجابة
وثمة سؤال وهو أنه إذا كان شد الرحال إلى زيارة القبور وبالأخص زيارة قبر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " جائزا، فما معنى هذا الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وهو لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى؟
والجواب أولا: إن هذا الحديث وإن أخرجه مسلم، لكنه معارض بفعل النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " حيث إنه كان يشد الرحال إلى مساجد غير هذه الثلاثة.
فقد أخرج الشيخان في صحيحهما أن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " كان يأتي مسجد قبا راكبا وماشيا فيصلي فيه. (١)
فكيف يجتمع هذا الحديث مع حديث النهي الذي لسانه آب عن التخصيص، وهذا يدل على أن الحديث الأول إما غير صحيح وعلى فرض صحته نقل محرفا.
والدليل على التحريف أنه نقل بوجه آخر أيضا، وهو إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلياء.
وأيضا بصورة ثالثة تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد. (٢)

---

١. صحيح مسلم: ٤ / ١٢٧، صحيح البخاري: ٢ / ١٧٦.
٢. أورد مسلم هذه الأحاديث في صحيحه: ٤ / ١٢٦، باب لا تشد الرحال من كتاب الحج وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي: ٢ / ٣٧ - ٣٨، وقد ذكر السبكي صورا أخرى للحديث هي أضعف دلالة على مقصود المستدل لاحظ شفاء السقام: ٩٨.

فعلى هذين الصورتين ليس هناك نهي عن شد الرحال إلى غير الثلاثة خصوصا الصورة الثالثة، وأقصى عندما فيها الدعوة إلى السفر إلى هذه الثلاثة.

وثانيا: نفترض أن الصحيح هو الصورة الأولى لكن المستثنى منه بقرينة المستثنى محذوف وهو لفظ المسجد، فيكون معناه لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، فلو دل فإنما يدل على النهي على شد الرحال إلى مسجد سوى المساجد الثلاثة، وأما السفر إلى الأماكن الأخرى فالحديث ساكت عنه غير متعرض لشئ من أحكامه، فإن النفي والإثبات يتوجهان إلى السفر إلى المسجد لا إلى الأمكنة الأخرى، كزيارة النبي ومشاهد الشهداء ومراقد الأولياء.

وثالثا: إن الحديث لا يدل - حتى - على حرمة السفر إلى مسجد غير هذه الثلاثة، وإنما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في السفر إلى غيرها، وذلك كما قاله الإمام الغزالي: لأن سائر المساجد متماثلة في الفضيلة بعد هذه المساجد فلا وجه لشد الرحال إلى غيرها وإنما يشد الرحال إذا كان هناك تفاوت في الفضيلة. (١)

وأما شد الرحال إلى زيارة أئمة أهل البيت " عليهم السلام " أو الشهداء فيعلم ذلك مما قد أوردناه من الأحاديث، فإذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة لزيارة قبور الشهداء فأئمة أهل البيت أئمة الشهداء

---

١. إحياء علوم الدين للإمام الغزالي: ٢ / ٢٤٧.

تجوز زيارتهم بطريق أولى، إن الإمام أمير المؤمنين من أفضل الشهداء، والحسين بن علي أبو الشهداء. فسلام الله عليهم يوم ولدوا ويوم استشهدوا ويوم يبعثون أحياء.
وعلى كل حال فشد الرحال، مسألة فقهية لا صلة لها بالمسائل العقائدية ولا بالشرك ولكل مجتهد دليله.

- ٣ -

البناء على القبور

المراد من القبور في العنوان هو قبور الأنبياء والشهداء والأئمة الأولياء الذين لهم مكانة عالية في قلوب المؤمنين، فهل هو أمر جائز أو لا؟

وهذه المسألة كالمسألتين السابقتين لا تمت إلى العقيدة الإسلامية بصلة حتى تكون ملاكا للتوحيد والشرك، وإنما هي من المسائل الفقهية التي يدور أمرها بين الإباحة والكراهة والاستحباب وغيرها.

ولا يصح لمسلم واع أن يتخذ تلك المسألة ذريعة للشرك والتكفير، فكم من مسائل فقهية اختلفت فيها كلمة الفقهاء، ومن حسن الحظ لم يختلف في هذه المسألة فقهاء الأئمة الأربعة ولا فقهاء المذهب الإمامي ودليلهم على جواز البناء على قبور تلك الشخصيات عبارة عن سيرة المسلمين منذ رحيل النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " إلى يومنا هذا.

أ. وأرى المسلمون جسد النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " في بيته المسقف وحرصوا على بذل المزيد من العناية بحجرته الشريفة

بشتى الأساليب، وقد جاء ذكرها في الكتب التي ألفت في تاريخ المدينة لا سيما كتاب وفاء الوفاء للعلامة السمهودي. (١)
وشيد البناء الموجود عام ١٢٧٠ ه وهو بحمد الله قائم لم يمسه السوء، وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظا مصونا عن الاندثار، فلو كان البناء على القبور أمرا حراما لدفنه المسلمون في مكان واسع لا سقف فيه.
ب. إن البناء على القبور كانت سيرة سائدة بين المسلمين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا، وهذه هي كتب الرحلات تذكر لنا وصف القبور الموجودة في المدينة التي كانت عليها قباب وعلى قبورهم صخرة فيها أسماؤهم ونحن نذكر من ذلك نزرا يسيرا:
١. يقول المسعودي (المتوفى ٤٤٥ ه) حول المشاهد والقباب في البقيع: وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع، رخامة مكتوب عليها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم وهذا قبر فاطمة بنت رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد. (٢)
٢. وذكر السبط ابن الجوزي (المتوفى عام ٦٥٤ ه) في تذكرة

---

١. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ٢ / ٤٥٨، الفصل التاسع.
٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢ / ٢٨٨.

الخواص ص ٣١١ نظير ذلك.
٣. كما وصف محمد بن أبي بكر التلمساني المدينة الطيبة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله: وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلا عليه مكتوب هذا قبر الحسن بن علي دفن إلى جنب أمه فاطمة " عليها السلام ". (١)
٤. يقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار (المتوفى عام ٦٤٣ ه) في " أخبار مدينة الرسول " صلى الله عليه وآله وسلم " ": في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أول البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما في كل يوم للزيارة " رضي الله عنهم ". (٢)
٥. ويقول ابن جبير الرحالة الطائر الصيت (المتوفى عام ٦١٤ ه) في رحلته في وصف بقيع الغرقد: يقع في مقابل قبر مالك قبر، السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي عليها قبة بيضاء، وعلى اليمين منها تربة ابن عمر ابن الخطاب، وبإزائه قبر عقيل بن أبي طالب (رض) وعبد الله بن جعفر الطيار (رض)، وبإزائهم روضة فيها أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي " صلى الله عليه وآله وسلم "، وروضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي (رض) وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلي العباس

---

١. مجلة العرب، رقم ٥ - ٦، المؤرخة ١٣٩٣ ه.
٢. أخبار مدينة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال بمكة المكرمة عام ١٣٦٦.

وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة، أبدع الصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة، وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم بن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم "، ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول " صلى الله عليه وآله وسلم " ويعرف ببيت الحزن... وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي رضي الله عنها وعن بنيها. (١)

٦. وروى البلاذري أنه لما ماتت زينب بنت جحش سنة عشرين صلى عليها عمر، وكان دفنها في يوم صائف، ضرب عمر على قبرها فسطاطا. (٢)

ولم يكن الهدف من ضربه ذلك الفسطاط تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها، بل لأجل تسهيله لأهلها حتى يتفيؤا بظله، ويقرأوا ما يتيسر من القرآن والدعاء.

٧. يقول السمهودي (المتوفى ٩١١ ه) في وصف بقيع الغرقد: قد ابتنى عليها مشاهد، منها المشهد المنسوب لعقيل بن أبي طالب وأمهات المؤمنين، تحوي العباس والحسن بن علي... وعليهم قبة شامخة في الهواء، قال ابن النجار:... وهي كبيرة عالية، قديمة البناء،

---

١. رحله ابن جبير، طبع بيروت، دار صادر، وقد زار ابن جبير المدينة المنورة عام ٥٧٨ ه.
٢. أنساب الأشراف: ١ / ٤٣٦.

وعليها بابان، يفتح أحدهما في كل يوم. وقال المطري: بناها الخليفة الناصر أحمد بن المستضئ... وقبر العباس وقبر الحسن مرتفعان من الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق، مصحفة بصفائح الصفر، مكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر. (١)

إلى غير ذلك من الرحالة الذين زاروا المدينة المنورة ووصفوا تلكم المزارات والمشاهد والقباب المرتفعة ونظر الكل إليها بعين الرضا والمحبة لا بعين السخط والغضب.

وهذا النوع من الاتفاق والإجماع من قبل علماء الإسلام طيلة قرون أقوى شاهد على جواز البناء على قبور الشخصيات الإسلامية الذين لهم منزلة ومكانة في القلوب.

ولنعم عندما

يقول العلامة العاملي:

مضت القرون وذي القباب مشيدة * والناس بين مؤسس ومجدد
في كل عصر فيه أهل الحل وال * – عقد الذين بغيرهم لم يعقد
لم ينكروا أبدا على من شادها * شيدت ولا من منكر ومفند
فبسيرة للمسلمين تتابعت * في كل عصر نستدل ونقتدي (٢)

---

١. وفاء الوفاء: ٣ / ٩١٦ – ٩٢٩.
٢. كشف الارتياب: ٣٩٥.

البناء على القبور من منظار آخر

إن صيانة القبور والآثار الباقية من بيت الوحي والعصمة " عليهم السلام " من مظاهر حب النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وتكريمه، وقد أمر المسلمون في الكتاب والسنة بحبه وتكريمه و تبجيله، قال سبحانه: * (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) *. (١)

وقال سبحانه في وصف المؤمنين: * (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) *. (٢)

فالآية الكريمة تأمر بأمور أربعة:

١. الإيمان به.

٢. تعزيره.

٣. نصرته.

٤. اتباع كتابه وهو النور الذي أنزل معه.

---

١. التوبة / ٢٤.

٢. الأعراف / ١٥٧.

وليس المراد من تعزيره هو نصرته، لأنه قد ذكره بقوله:
" نصروه " وإنما المراد توقيره، وتكريمه وتعظيمه بما أنه نبي الرحمة والعظمة، ولا يختص تعزيره وتوقيره بحال حياته بل يعمها، كما أن الإيمان به والتبعية لكتابه لا يختصان بحال حياته الشريفة.
وعلى هذا فحب النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " ومن يمت إليه بصلة أصل إسلامي يجب أن يهتم به المسلمون ويطبقونه في حياتهم.
ولأجل كرامة رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " ومنزلته يدعو الذكر الحكيم إلى تعظيمه في المجالس وحفظ كرامته ويقول:
* (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) *. (١)
وقال أيضا: * (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) *. (٢)
وقال: * (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) *. (٣)
فأي إجلال أبلغ من هذا، وأي تقدير أورع من هذا التقدير.

---

١. الحجرات / ٢.
٢. الحجرات / ٣.
٣. النور / ٦٣.

وليس الذكر الحكيم وحده هو الداعي والآمر بحب
الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل السنة النبوية تضافرت على لزوم حبه.
قال رسول الله: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من
والده وولده والناس أجمعين ". (١)
وقد تواتر مضمون هذه الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أراد
فليرجع إلى الكتب المعدة لهذا الغرض. (٢)
مظاهر الحب
إن لهذا الحب مظاهر ومجالي، إذ ليس الحب شيئا يستقر في
صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال
الإنسان وتصرفاته، بل من خصائصه أن يظهر أثره على سلوك
الإنسان وملامحه.
١. حب الله ورسوله لا ينفك عن اتباع دينه والاستنان بسنته
والانتهاء عن نواهيه، ولا يعقل أبدا أن يكون المرء محبا لرسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه. والاتباع أحد
مظاهر الحب قال سبحانه: * (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) * (٣). فمن ادعى الحب في النفس
وخالف في العمل، فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

---

١. صحيح البخاري: ١ / ٨، باب حب الرسول من الإيمان من كتاب الإيمان.
٢. كنز العمال: ٢ / ١٢٦.
٣. آل عمران / ٣١.

وقد نسب إلى الإمام الصادق " عليه السلام " البيتان التاليتان:
تعصي الإله وأنت تظهر حبه * هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته * أن المحب لمن يحب مطيع (١)
٢. ومن مظاهر هذا الحب، صيانة آثارهم وحفظ معالمهم والعناية بكل عندما
يتصل بهم حتى الاحتفاظ بما صلوا فيه من ألبسة أو شربوا منه الماء من أوان أو استخدموه من أشياء، وتشييد مراقدهم، وتعمير قبورهم... كل ذلك انعكاس طبيعي لهذا الحب الكامن في النفوس والود المتمكن في القلوب.
وليس هذا أمرا مختصا بالمسلمين، بل الأمم المتحضرة المعتزة بماضيها وتاريخها، تسعى إلى صيانة كل أثر تاريخي باق من الماضي وصيانة مراقد شخصياتهم العلمية.
وأخيرا نقول: لا شك أن لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية لا سيما في مهد الإسلام مكة ومهجر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " المدينة المنورة، نتائج ومضاعفات خطيرة على الأجيال اللاحقة التي سوف لا تجد أثرا لوقائع التاريخ الإسلامي، وربما تؤول إلى الاعتقاد بأن الإسلام قضية مفتعلة وفكرة مبتدعة ليس لها جذور تاريخية، تماما كما أصبحت قضية السيد المسيح " عليه السلام " في نظر الغرب قضية أسطورية حاكتها أيدي البابوات والقساوسة، لعدم

---

١. سفينة البحار، مادة حب.

وجود آثار ملموسة تدل على أصالة هذه القضية ووجودها التاريخي.

إيضاح حديث أبي هياج

بقي هنا سؤال وهو أن مقتضى هذه الأدلة وإن كان هو جواز البناء على القبور لكن الحديث العلوي يمنعنا عنه وهو عندما أخرجه

مسلم في صحيحه عن أبي هياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على عندما

بعثني عليه رسول الله " صلى الله عليه وآله

وسلم " أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته. (١)

والجواب: أن الحديث يدل على لزوم تسطيح القبور مقابل تسنيمها ولا صلة له ببناء القبور أو البناء عليه وذلك أن لفظة " التسوية " تستعمل في معنيين:

١. تطلق ويراد منها مساواة شئ بشئ فعندئذ تتعدى إلى المفعول الثاني بحرف التعدية كالباء قال سبحانه: * (إذ نسويكم برب العالمين) *. (٢)

وقال سبحانه حاكيا عن حال الكافرين يوم القيامة: * (يومئذ

---

١. صحيح مسلم: ٣ / ٦٠، باب الأمر بتسوية القبر، والسنن للترمذي: ٢ / ٢٥٦، باب عندما جاء في تسوية القبور.

٢. الشعراء / ٩٨.

يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) * (١) أي يودون أن يكونوا ترابا أو أمواتا تحت الأرض.

٢. تطلق ويراد منها عندما

هو وصف لنفس الشئ لا بمقايسته

إلى شئ آخر، فعندئذ تكتفي بمفعول واحد.

قال سبحانه: * (الذي خلق فسوى) *. (٢)

وقال سبحانه: * (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) *. (٣)

ففي هذين الموردين تقع التسوية وصفا للشئ لا بإضافته إلى غيره.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الحديث فنقول:

لو أراد من قوله: سويته هو مساواة القبر بالأرض - كمساواة شئ بشئ - يلزم أن يتخذ مفعولا ثانيا بحرف الجر كأن يقول سويته بالأرض أي جعلتهما متساويين والمفروض أنه اقتصر بمفعول واحد دون الثاني.

فتعين أن المراد هو الثاني أي كون المساواة وصفا لنفس الشئ وهو القبر ومعناه عندئذ تسطيح القبر في مقابل تسنيمه،

---

١. النساء / ٤٢.
٢. الأعلى / ٢.
٣. القيامة / ٤.

وبسطه في مقابل اعوجاجه، وهذا هو الذي فهمه شراح الحديث، وبما أن السنة هي التسطيح، والتسنيم طرأ بعد ذلك، أمر علي " عليه السلام " بأن يكافح البدعة ويسطح كل قبر مسنم.

ومما يؤيد أن المراد هو تسطيح القبر أن مسلم في صحيحه عنون الباب هكذا " باب الأمر بتسوية القبر " ثم نقل رواية عن ثمامة أنه قال: كنا مع فضالة بن عبيد في أرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي. قال: سمعت رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " يأمر بتسويته ثم أورد بعده حديث أبي الهياج المتقدم. (١)

وقد فسره أيضا بما ذكرنا الفقيه القرطبي حيث قال: قال علماؤنا ظاهر حديث أبي الهياج منع تسنيم القبور ورفعها. (٢)

---

١. صحيح مسلم: ٣ / ٦١، باب الأمر بتسوية القبر.
٢. تفسير القرطبي: ١٠ / ٣٨٠.

- ٤ -

بناء المساجد على القبور والصلاة فيها

إن بناء المساجد على القبور أو عندها والصلاة فيها مسألة فقهية فرعية لا تمت إلى العقائد بصلة.

فالمرجع في هذه المسائل هم أئمة المذاهب وفقهاء الدين يستنبطون حكمه من الكتاب والسنة، وليس لنا تكفير أو تفسيق واحد من الطرفين إذا قال بالجواز أو بعدمه، وكم من مسألة فقهية اختلفت فيها آراء الفقهاء والمجتهدين، ونحن بدورنا نعرض المسألة على الكتاب والسنة لنستنبط حكمها من أوثق المصادر الفقهية.

الذكر الحكيم يشرح لنا كيفية عثور الناس على قبور أصحاب الكهف وأنهم - بعد العثور - اختلفوا في كيفية تكريمهم وإحياء ذكراهم والتبرك بهم على قولين: فمن قائل: يبنى على قبورهم بنيان ليخلد ذكراهم بين الناس.

إلى قائل آخر: يبنى على قبورهم مسجدا يصلى فيه.

وقد حكى سبحانه كلا الاقتراحين من دون تنديد بواحد

منهما، قال سبحانه: * (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وإن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) *. (١)

قال المفسرون: إن الاقتراح الأول كان لغير المسلمين ويؤيده قولهم في حق أصحاب الكهف: * (ربهم أعلم بهم) * وهو ينم عن اهتمام بالغ بحالهم ومكانتهم فحولوا أمرهم إلى ربهم.

وأما الاقتراح الثاني فنفس المضمون (اتخاذ قبورهم مسجدا) شاهد على أن المقترحين كانوا هم المؤمنين، وما اقترحوا ذلك إلا للتبرك بالمكان الذي دفنت فيه أجساد هؤلاء الموحدين.

والقرآن يذكر ذلك الاقتراح من دون أن يعقب عليه بنقد أورد وهو يدل على كونه مقبولا عند منزل الوحي.

قال الطبري في تفسير الآية: إن المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع أناسا كثيرين يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فرقا ورأى أنه حيران، فقام مسندا ظهره إلى جدار من جدر المدينة، ويقول في نفسه: والله عندما

أدري عندما

هذا أما عشية أمس

فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل، وأما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثم قال في نفسه:

---

١. الكهف / ٢١.

لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف. (١)

سيرة المسلمين في البناء على قبور الصالحين

إن سيرة المسلمين تكشف عن جواز بناء المساجد على قبور الصالحين الذين يتبرك بهم ولهم مكانة عالية في قلوبهم، ويدل على ذلك الأمور التالية:

أ. دفن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " في بيته الذي فيه وكان في جوار المسجد النبوي ولما كثر المسلمون وازداد عددهم وضاق المسجد بهم أدخلوا الجانب الشرقي – الذي كان فيه بيوت أزواج النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والبيت الذي دفن فيه – في المسجد النبوي على نحو يقف المصلون أطراف القبر من الجوانب الأربعة ويحيطون به.

يقول الطبري في حوادث سنة ٨٨: إنه في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه، باشتراء الأملاك المحيطة به، فأخبر عمر الفقهاء العشرة وأهل المدينة بذلك، فحبذوا بقاء تلك الحجر على حالها ليعتبر بها المسلمون، ويكون أدعى لهم إلى الزهد اقتداء بنبيهم، فكاتب ابن عبد العزيز الوليد في ذلك، فأرسل إليه يأمره بالخراب،

---

١. تفسير الطبري: ١٥ / ١٤٥.

وتنفيذ عندما
ذكره في كتابه الأول، فضج بنو هاشم وتباكوا، ولكن عمر
نفذ عندما
أمره به الوليد، فأدخل الحجرة النبوية (حجرة عائشة) في
المسجد، فدخل القبر في المسجد وسائر حجرات أمهات المؤمنين
وقد بني عليه سقف مرتفع كما أمر الوليد. (١)
فإذا كان هذا العمل بمرأى ومسمع من فقهاء المدينة العشرة
والمسلمين عامة، وفي مقدم التابعين منهم علي بن الحسين زين
العابدين وابنه محمد بن علي الباقر " عليهم السلام " اللذين لم يشك
أحد في زهدهما وعلمهما وعرفانهما. فهو أوضح دليل على جواز
إقامة المسجد عند قبور الأنبياء والصالحين والصلاة فيه.
وقد أقر هذا العمل كل التابعين وجاء بعدهم إمام دار الهجرة
مالك بر أئمة المذاهب الأربعة فلم يعترضوا عليه بشئ.
ب. يقول السمهودي في حق السيدة فاطمة بنت أسد أم
الإمام أمير المؤمنين علي " عليه السلام ": فلما توفيت خرج رسول
الله فأمر بقبرها فحفر في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر
فاطمة. (٢)
والعبارة تدل على أنهم بنوا المسجد بعد تدفينها.
وقال في موضع آخر: إن مصعب بن عمير وعبد الله بن
جحش دفنا تحت المسجد الذي بني على قبر حمزة. (٣)

---

١. راجع تاريخ الطبري: ٥ / ٢٢٢، البداية والنهاية: ٨ / ٦٥.
٢. وفاء الوفاء: ٣ / ٨٩٧.
٣. المصدر السابق: ٣ / ٩٢٢.

ج. إن السيدة عائشة قضت حياتها في بيتها وصلت فيه تمام عمرها، ولم يكن بينها وبين القبر أي جدار إلى أن دفن عمر فبني جدار حال بينها وبين القبور الثلاثة. (١)

د. روى البيهقي أن فاطمة بنت النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " كانت تذهب إلى زيارة قبر عمها حمزة فتبكي وتصلي عنده. (٢)

أخرج الحاكم، عن سليمان بن داود، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين " عليهم السلام "، عن أبيه، أن فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده.

قال الحاكم: وهذا الحديث رواته عن آخرهم ثقات. وأقره الذهبي عليه ونقله البيهقي في سننه. (٣)

وهذا يدل على بناء المسجد على قبر حمزة في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة فيه.

ه. إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم - في معراجه الذي بدأ به من المسجد الأقصى - نزل في المدينة، وطور سينا وبيت لحم، وصلى فيها، فقال جبرئيل: صليت في " طيبة " وإليها مهاجرتك، وصليت في طور سينا حيث كلم الله موسى، وصليت في بيت لحم حيث ولد المسيح. (٤)

---

١. وفاء الوفاء: ٢ / ٥٤١.
٢. السنن الكبرى: ٤ / ٧٨.
٣. مستدرك الحاكم: ١ / ٣٧٧.
٤. الخصائص الكبرى: ١ / ١٥٤.

هل هناك فرق بين المدفن والمولد، مع أن الصلاة في كل، لغاية واحدة وهي التبرك بالإنسان المثالي الذي مس جسده الطاهر، ذلك التراب بداية عمره أو نهايته؟!

وبما أن الكتاب – مضافا إلى السيرة المستمرة بعد رحيل رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " إلى يومنا هذا – دليل قطعي، يكون محكما يؤخذ به، وما دل على خلافه، يكون متشابها، فيرد إلى المحكم ويفسره بفضله.

ربما يتراءى من بعض الروايات عدم جواز اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

فروي عن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " أنه قال: قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وفي رواية أخرى: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وفي رواية ثالثة: ألا وإن من كل قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد. (١)

ولنا مع هذه الأحاديث وقفة قصيرة، وذلك لأن تاريخ اليهود لا يتفق مع مضامين تلك الروايات، لأن سيرتهم قد قامت على قتل

---

١. للوقوف على مصادر هذه الأحاديث راجع صحيح البخاري: ٢ / ١١١ كتاب الجنائز، سنن النسائي: ٢ / ٨٧١، كتاب الجنائز، صحيح مسلم: ٢ / ٦٨، باب النهي عن بناء المساجد على القبور من كتاب المساجد.

الأنبياء وتشريدهم وإيذائهم إلى غير ذلك من أنواع البلايا التي كانوا يصبونها على أنبيائهم.
ويكفي في ذلك قوله سبحانه: * (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب عندما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) *. (١)
وقوله سبحانه: * (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) *. (٢)
وقال سبحانه: * (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم ب آيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق...) *. (٣)
أفتزعم أن أمة قتلت أنبياءها في مواطن مختلفة تتحول إلى أمة تشيد المساجد على قبور أنبيائها تكريما وتبجيلا لهم.
وعلى فرض صدور هذا العمل عن بعضهم، فللحديث محتملات أخرى غير الصلاة فيها والتبرك بصاحب القبر وهي:
أ. اتخاذ القبور قبلة.
ب. السجود على القبور تعظيما لها بحيث يكون القبر مسجودا عليه.

---

١. آل عمران / ١٨١.
٢. آل عمران / ١٨٣.
٣. النساء / ١٥٥.

ج. السجود لصاحب القبر بحيث يكون هو المسجود له،
فالقدر المتيقن هو هذه الصور الثلاث لا بناء المسجد على القبور
تبركا بها.
والشاهد على ذلك أن الرسول " صلى الله عليه وآله وسلم "
حسب بعض الروايات يصف هؤلاء بكونهم شرار الناس.
أخرج مسلم في كتاب المساجد: إن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا
كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول
الله:
(صلى الله عليه وآله وسلم) إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بني على قبره
مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم
القيامة. (١)
إن وصفهم بشرار الخلق يميط اللثام عن حقيقة عملهم إذ لا
يوصف الإنسان بالشر المطلق إلا إذا كان مشركا - وإن كان في الظاهر
من أهل الكتاب - قال سبحانه: * (إن شر الدواب عند الله الصم البكم
الذين لا يعقلون) *. (٢)
وقال: * (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) *. (٣)
وهذا يعرب عن أن عملهم لم يكن صرف بناء المسجد على
القبر والصلاة فيه، أو مجرد إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملا
مقرونا بالشرك بألوانه وهذا كما في اتخاذ القبر مسجودا له أو

---

١. صحيح مسلم: ٢ / ٦٦، باب النهي عن بناء المساجد على القبور من كتاب المساجد.
٢. الأنفال / ٢٢.
٣. الأنفال / ٥٥.

مسجودا عليه أو قبلة يصلي عليه.
قال القرطبي: وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال: سمعت
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها " لفظ
مسلم " أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود و
النصارى فيؤدي إلى عبادة من فيها. (١)
إن الصلاة عند قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو لأجل التبرك بمن
دفن، ولا غرو فيه وقد أمر سبحانه الحجيج باتخاذ مقام إبراهيم
مصلى قال سبحانه: * (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) *. (٢)
إن الصلاة عند قبور الأنبياء كالصلاة عند مقام إبراهيم غير أن
جسد النبي إبراهيم " عليه السلام " لامس هذا المكان مرة أو مرات
عديدة، ولكن مقام الأنبياء احتضن أجسادهم التي لا تبلى أبدا.
هذا وأن علماء الإسلام فسروا الروايات الناهية بمثل عندما
قلناه.
قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور
الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها،
واتخذوها أوثانا، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأما من اتخذ
مسجدا في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا للتعظيم ولا

---

١. تفسير القرطبي: ١٠ / ٣٨.
٢. البقرة / ١٢٥.

للتوجه ونحوه، فلا يدخل في الوعيد المذكور. (١)
وقال السندي شارح سنن النسائي: اتخذوا قبور أنبيائهم
مساجد، أي قبلة للصلاة ويصلون إليها، أو بنوا مساجد يصلون فيها،
ولعل وجه الكراهة أنه قد يفضي إلى عبادة نفس القبر.
إلى أن يقول: يحذر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أمته أن
يصنعوا بقبره عندما
صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذ تلك
القبور مساجد، إما بالسجود إليها تعظيما لها أو بجعلها قبلة يتوجهون
في الصلاة إليها. (٢)

---

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١ / ٥٢٥، طبعة دار المعرفة، وقريب منه عندما في إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٢ / ٤٣٧، باب بناء المسجد على القبور.
٢. سنن النسائي: ٢ / ٤١.

- ٥ -

التوسل بالأنبياء والصالحين

إن عالم الكون عالم فسيح لا يحيط الإنسان بأسراره ودقائقه، وما اكتشفه الإنسان منها فإنما هو ضئيل بالنسبة إلى عندما خفي عليه.

كيف وما أوتي من العلم إلا قليلا، قال سبحانه: * (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) *. (١)

هذا هو العالم الفيزيائي الذائع الصيت أنشتاين (المتوفى عام ١٩٥٥ م) قال: إن نسبة عندما أعلم إلى عندما لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي. (٢)

ولو أنصف لكان عليه أن يقول حتى أقل من هذه النسبة، وكان الأولى أن يقول نسبة هذا الدرج إلى أطباق السماء.

وعلى ضوء ذلك فلله سبحانه في هذا العالم أسباب وعلل لم يصل إليها البشر مع عندما بذل من الجهود.

---

١. الإسراء / ٨٥.

٢. مجلة رسالة الإسلام السنة الرابعة، العدد الأول، مقال الكاتب المصري أحمد أمين.

ثم إن الأسباب تنقسم إلى طبيعية ومادية وإلى غيبية وإلهية، أما الأول فالنظام الكائن مبني على العلل والأسباب الطبيعية وتأثير كل سبب طبيعي ومادي بإذن الله سبحانه، وليس للعلم دور سوى الكشف عن هذه الأسباب المادية.

غير أن المادي ينظر إلى هذه الأسباب بنظرة استقلالية ولكن الإلهي ينظر إليها نظرة تبعية قائمة بالله سبحانه، مؤثرة بإذنه، وهذا هو ذو القرنين يتمسك بالأسباب الطبيعية في إيجاد السد أمام يأجوج ومأجوج ويستعين بالأسباب ولا يراها مخالفا للتوحيد.

قال سبحانه حاكيا عنه: * (آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا * فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) *. (١)

إن الاستعانة بالأحياء والاستغاثة بهم أمر جرت عليه سيرة العقلاء، وهذا موسى الكليم استغاثه بعض شيعته فأجابه دون أن يخطر ببال أحد أن الاستغاثة لا تجوز إلا بالله، قال سبحانه: * (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) *. (٢)

---

١. الكهف / ٩٦ - ٩٨.
٢. القصص / ١٥.

وما هذا إلا لأن موسى وشيعته تعتقد بأن المغيث إنما يغيث بقوة وإذن منه سبحانه، فلا مانع من طلب النجدة والاستغاثة والاستعانة من الأحياء شريطة القيد المذكور، وقد أشير إليه في قوله سبحانه: * (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) *. (١)

* * *

كل عندما
ذكرنا كان يعود إلى التوسل بالأحياء والأسباب الطبيعية، وهذا ليس مورد بحث ونقاش.
إنما الكلام في التوسل بالأنبياء والأولياء لا على الطريق المألوف وله أقسام:
أ. التوسل بدعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أو الصالحين في حال حياتهم.
ب. التوسل بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " قدسيته وشخصيته.
ج. التوسل بحق النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والأنبياء والصالحين.
د. التوسل بدعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والصالحين بعد رحيلهم.
ه. طلب الشفاعة من النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والأولياء.
وإليك دراسة كل واحد منها:
أ. التوسل بدعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أو الصالحين في حال حياتهم
اتفق المسلمون على جواز التوسل بدعاء الرسول " صلى الله

---

١. آل عمران / ١٢٦.

عليه وآله وسلم " في حال حياته، بل يستحب التوسل بدعاء المؤمن كذلك، قال سبحانه: * (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) *. (١)

تجد أنه سبحانه يدعو الظالمين إلى المجئ إلى مجلس الرسول " صلى الله عليه وآله وسلم " كي يستغفر لهم النبي " صلى الله عليه وآله وسلم ".

وفي آية أخرى يندد بالمنافقين بأنهم إذا دعوا إلى المجئ إلى مجلس الرسول " صلى الله عليه وآله وسلم " وطلب المغفرة منه تنكروا ذلك واعترضوا عليه بلي الرأس، قال سبحانه: * (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) *. (٢)

وتاريخ الإسلام حافل بنماذج عديدة من هذا النوع من التوسل.

ب. التوسل بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وقدسيته وشخصيته

وها هنا وثيقة تاريخية ننقلها بنصها تعرب عن توسل الصحابة بدعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " في حال حياته أولا، وبقدسيته وشخصيته ثانيا، والمقصود من نقلها هو الاستدلال على الأمر الثاني.

روى عثمان بن حنيف أنه قال: إن رجلا ضريرا أتى النبي فقال: ادع الله أن يعافيني؟

---

١. النساء / ٦٤.
٢. المنافقون / ٥.

فقال " صلى الله عليه وآله وسلم ": إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير؟
قال: فادعه، فأمره " صلى الله عليه وآله وسلم " أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفعه في ".
قال ابن حنيف: فوالله عندما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضر.
وهذه الرواية من أصح الروايات، قال الترمذي: هذا حديث حق، حسن صحيح. (١)
وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح. (٢)
ويستفاد من الحديث أمران
الأول: أن يتوسل الإنسان بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدل على ذلك قول الضرير: ادعوا الله أن يعافيني، وجواب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير.
الثاني: إنه يجوز للإنسان الداعي أن يتوسل بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " في ضمن دعائه وهذا يستفاد من الدعاء الذي

---

١. صحيح الترمذي ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨، سنن ابن ماجة: ١ / ٤٤١ برقم ١٣٨٥، مسند أحمد: ٤ / ١٣٨، إلى غير ذلك.
٢. صحيح الترمذي ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨، سنن ابن ماجة: ١ / ٤٤١ برقم ١٣٨٥، مسند أحمد: ٤ / ١٣٨، إلى غير ذلك.

علمه النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " للضرير، والإمعان فيه يثبت هذا المعنى، وأنه يجوز لكل مسلم في مقام الدعاء أن يتوسل بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " ويتوجه به إلى الله.

وإليك الجمل التي تدل على هذا النوع من التوسل:

١. اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك

إن كلمة " بنبيك " متعلق بفعلين " أسألك " و " أتوجه إليك " والمراد من النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاءه.

٢. محمد نبي الرحمة

نجد أنه يذكر اسم النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " ثم يصفه بنبي الرحمة معربا عن أن التوسل بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بما لها من الكرامة والفضيلة.

٣. يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي

إن جملة: " يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي " تدل على أن الضرير حسب تعليم الرسول، اتخذ النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " نفسه وسيلة لدعائه وتوسل بذاته بما لها من المقام والفضيلة.

وهذا الحديث يرشدنا إلى أمرين:

الأول: جواز التوسل بدعاء الرسول.

الثاني: جواز التوسل إلى الله بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بما لها من الكرامة والمنزلة عند الله تبارك وتعالى.

أما الأول، فقد جاء في محاورة الضرير مع النبي " صلى الله

عليه وآله وسلم "، فكان الموضوع هو دعاء الرسول، أي طلب الضرير الدعاء منه " صلى الله عليه وآله وسلم ".
وأما الثاني، فيستفاد من الدعاء الذي علمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للضرير، فإنه يضمن التوسل بشخص النبي " صلى الله عليه وآله وسلم ".
نعم لم يكن يدور في خلد الضرير سوى التوسل بدعائه
ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علمه دعاء جاء فيه التوسل بذات النبي " صلى الله
عليه وآله وسلم " وهو في نوعه توسل ثان، وبذلك وقفنا على أنه يستحب للمسلم أن يتوسل بدعاء الصالحين من الأنبياء والأولياء كما يجوز له في دعائه التوسل بذواتهم ومقامهم ومنزلتهم.
ويظهر من الأحاديث الشريفة أن أصحاب النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " كانوا يتوسلون بذات النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " في مقام الابتهال والدعاء حتى بعد رحيل النبي " صلى الله عليه وآله وسلم ".
أخرج الطبراني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف: إن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضاة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد " صلى الله عليه وآله وسلم " نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي " فتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك.
فانطلق الرجل فصنع عندما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان،

فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: عندما
ذكرت حاجتك حتى كان الساعة. وقال: عندما
كانت لك من حاجة
فاذكرها.
ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له:
جزاك الله خيرا عندما
كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته
في، فقال عثمان بن حنيف: والله عندما
كلمته، ولكني شهدت رسول
الله " صلى الله عليه وآله وسلم " وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره،
فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد فقد شق
علي.
فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إئت الميضاة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات.
قال ابن حنيف: فوالله عندما
تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل
علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط. (١)
* * *

إن سيرة المسلمين في حياة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وبعدها، استقرت على أنهم كانوا يتوسلون بأولياء الله والصالحين من عباده، دون أن يدور في خلد أحد منهم بأنه أمر حرام أو شرك أو

---

١. المعجم الكبير للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني: ٩ / ٣٠ - ٣١، باب عندما أسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١١، والمعجم الصغير له أيضا: ١ / ١٨٣ - ١٨٤.

بدعة، بل كانوا يرون التوسل بدعاء الصالحين طريقا إلى التوسل بمنزلتهم، وشخصيتهم، فإنه لو كان لدعاء الرجل الصالح أثر، فإنما هو لأجل قداسة نفسه وطهارتها، ولولاهما لما استجيبت دعوته، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء الصالح وبين التوسل بشخصه وذاته، حتى يكون الأول نفس التوحيد والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه.

إن التوسل بقدسية الصالحين، والمعصومين من الذنب، والمخلصين من عباد الله لم يكن قط أمرا جديدا بين الصحابة بل كان ذلك امتدادا للسيرة الموجودة قبل الإسلام، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك وإليك البيان:

١. استسقاء عبد المطلب بالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وهو رضيع:

لقد استسقى عبد المطلب بالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وهو طفل صغير، حتى قال ابن حجر: إن أبا طالب يشير بقوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال * اليتامى عصمة للأرامل

إلى عندما

وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " معه غلام. (١)

٢. استسقاء أبي طالب بالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم ":

أخرج ابن عساكر عن ابن عرفلة، قال: قدمت مكة وقريش في

---

١. فتح الباري: ٢ / ٣٩٨، دلائل النبوة: ٢ / ١٢٦.

قحط.... فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام - يعني: النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام وما في السماء قزعه، فأقبل السحاب من هاهنا ومن هاهنا واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب في قصيدة يمدح بها النبي " صلى الله عليه وآله وسلم ":

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو غلام، بل استسقاء عبد المطلب به وهو صبي أمرا معروفا بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس.

ويظهر من الروايات أن استسقاء أبي طالب بالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " كان موضع رضا من رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " فإنه بعد عندما بعث للرسالة استسقى للناس، فجاء المطر واخصب الوادي فقال النبي " صلى الله عليه وآله وسلم ": " لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟ ".

فقام علي " عليه السلام " وقال: يا رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢)

---

١. السيرة الحلبية: ١ / ١١٦.
٢. إرشاد الساري: ٢ / ٣٣٨.

إن التوسل بالأطفال الأبرياء في الاستسقاء أمر ندب إليه الشرع الشريف، فهذا هو الإمام الشافعي يقول: أن يخرج الصبيان، ويتنظفوا للاستسقاء وكبار النساء ومن لا هيئة له منهن، ولا أحب خروج ذوات الهيئة ولا آمر بإخراج البهائم. (١)

وما الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن، إلا استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهارتهم، وكل ذلك يعرب عن أن التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح استنزال الرحمة وكأن المتوسل بهم يقول: ربي وسيدي إن الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وكلتا الطائفتين أحق بالرحمة والمرحمة، فلأجلهم أنزل رحمتك إلينا، حتى تعمنا في ظلهم.

فإن الساقي ربما يسقي مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة وفي ظلها تسقى الأعشاب غير المفيدة.

وعلى ضوء هذا التحليل يفسر توسل الخليفة بعم الرسول: " العباس بن عبد المطلب " الذي سيمر عليك، وأنه كان توسلا بشخصه وقداسته وصلته بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتعلم بالتالي أن هذا العمل كان امتدادا للسيرة المستمرة، وأن هذا لا يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصلة.

---

١. الأم: ١ / ٢٤٨، باب خروج النساء والصبيان في الاستسقاء.

٣. التوسل بعم النبي صلى الله عليه وآله وسلم
أخرج البخاري في صحيحه، عن أنس: " أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب (رض) فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون ". (١)
هذا عندما نص عليه البخاري وهو يدل على أن عمر بن الخطاب عند دعائه واستسقائه توسل بعم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشخصه وشخصيته وقدسيته وقرابته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا بدعائه ويدل على ذلك: قول الخليفة عند الدعاء: " اللهم كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا " وهذا ظاهر في أن الخليفة قام بنفسه بالدعاء عند الاستسقاء، وتوسل بعم الرسول وقرابته منه في دعائه.
ج. التوسل بحق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأنبياء والصالحين
وهناك لون آخر من التوسل وهو التوسل بحق الأنبياء والمرسلين، والمراد الحق الذي تفضل به سبحانه عليهم فجعلهم أصحاب الحقوق، وليس معنى ذلك أن للعباد أو للصالحين على الله حقا ذاتيا يلزم عليه تعالى الخروج منه، بل الحق كله لله، وإنما المراد

---

١. صحيح البخاري: ٢ / ٢٧، باب صلاة الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا من كتاب الصلاة.

، الحق الذي منحه سبحانه لهم تكريما، وجعلهم أصحاب حق على الله، كما قال سبحانه: * (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) *. (١)
ويدل على ذلك من الروايات عندما يلي:
أ. روى أبو سعيد الخدري: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من خرج من بيته إلى الصلاة، وقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك. (٢)
ب. روى عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم ": لما اقترف آدم الخطيئة، قال: ربي أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله عز وجل: يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه قال: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله عز وجل: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت ولولا محمد عندما خلقتك. (٣)

---

١. الروم / ٤٧.
٢. سنن ابن ماجة: ١ / ٢٥٦ رقم ٧٧٨، باب المساجد، مسند أحمد: ٣ / ٢١.
٣. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي: ٥ / ٤٨٩، دار الكتب العلمية.

ج. روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد حفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفر رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه، وقال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين. (١)

إلى هنا تم البحث عن أقسام التوسل الثلاثة وعرفت أن الجميع يدعمه الكتاب والسنة وتصور أن التوسل بغيره سبحانه تأليه وعباده لغيره قد عرفت بطلانه وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذاته أو حقه شركا يلزم أن يكون كل توسل كذلك حتى التوسل بالغير في الأمور العادية مع أنه باطل بالضرورة، لأن الجميع من قبيل التوسل بالأسباب، عادية كانت أو غير عادية، طبيعية كانت أو غير طبيعية.

الوجه الثاني: قد عرفت في تعريف العبادة أنه الخضوع أمام الغير بما هو إله أو رب أو مفوض إليه أموره سبحانه، وليس واحد من هذه القيود متحققا في التوسل بالأنبياء والصالحين والشهداء بل يتوسل بهم بما أنهم عباد مكرمون يستجاب دعاؤهم عند الله سبحانه، أو أن لذواتهم وحقوقهم منزلة عند الله، فالتوسل بهم يثير

---

١. معجم الطبراني الأوسط: ٣٥٦، حلية الأولياء: ٣ / ١٢١، مستدرك الحاكم: ٣ / ١٠٨.

بحار رحمته.
كيف يكون التوسل بنبي التوحيد " صلى الله عليه وآله وسلم " شركا مع أنه يتوسل به بما أنه مكافح للشرك ومقوض لدعائمه؟
د. التوسل بدعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والصالحين بعد رحيلهم
من أقسام التوسل الرائجة بين المسلمين هو التوسل بدعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أو الصالحين بعد رحيلهم.
ولكن ثمة سؤالا يطرح نفسه وهو:
أن التوسل بدعاء الغير إنما يصح إذا كان الغير حيا يسمع دعاءك ويستجيب لك ويدعو الله سبحانه لقضاء وطرك ونجاح سؤالك، أما إذا كان المستغاث ميتا انتقل من هذه الدنيا فكيف يصح التوسل بمن انتقل إلى رحمة الله وهو لا يسمع؟
والجواب: أن الموت - حسب عندما يوحي إليه القرآن والسنة النبوية - ليس بمعنى فناء الإنسان وانعدامه، بل معناه الانتقال من دار إلى دار وبقاء الحياة بنحو آخر والذي يعبر عنه بالحياة البرزخية.

وتدل على بقاء الحياة آيات من الذكر الحكيم نقتصر على بعضها:

الآية الأولى:

قوله تعالى: * (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) *. (١)

وقد كان المشركون يقولون: إن أصحاب محمد يقتلون أنفسهم في الحروب دون سبب، ثم يقتلون ويموتون فيذهبون، فوافى الوحي ردا عليهم بأنه ليس الأمر على عندما يقولون، بل هم أحياء

وإن كان المشركون وغيرهم لا يدركون ذلك.

الآية الثانية

قوله تعالى: ١. * (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) *.

٢. * (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) *.

٣. * (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين) *. (٢)

---

١. البقرة / ١٥٤.

٢. آل عمران / ١٦٩ - ١٧١.

والآيات هذه صريحة في بقاء الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، وبعد انفكاك الأجسام وبلاها، كما يتضح ذلك من الإمعان في المقاطع الأربعة التالية:

١. * (أحياء عند ربهم) *.

٢. * (يرزقون) *.

٣. * (فرحين) *.

٤. * (ويستبشرون) *.

والمقطع الثاني يشير إلى التنعم بالنعم الإلهية، والثالث والرابع يشير إلى النعم الروحية والمعنوية، وفي الآية دلالة واضحة على بقاء الشهداء بعد الموت إلى يوم القيامة.

وقد نزلت الآية: إما في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين، وإما في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا، أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن شماس، وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار، وعلى قول نزلت في حق كلتا الطائفتين.

الآية الثالثة

قوله سبحانه: * (وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالي لا

أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إني إذا لفي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) *. (١)

اتفق المفسرون على أن الآيات نزلت في رسل عيسى " عليه السلام "، وقد نزلوا بأنطاكيا داعين أهلها إلى التوحيد وترك عبادة غيره سبحانه، فعارضهم من كان فيها بوجوه مذكورة في نفس السورة.

فبينما كان القوم والرسل يتحاجون إذ جاء رجل من أقصى المدينة يدعوهم إلى الله سبحانه وقال لهم:

اتبعوا معاشر الكفار من لا يطلبون منكم الأجر ولا يسألونكم أموالكم على عندما

جاءوكم به من الهدى، وهم مهتدون إلى طريق الحق، سالكون سبيله، ثم أضاف قائلا:

وما لي لا أعبد الذي فطرني وأنشأني وأنعم إلي وهداني وإليه ترجعون عند البعث، فيجزيكم بكفركم أتأمرونني أن أتخذ آلهة من دون الله مع أنهم لا يغنون شيئا ولا يردون ضررا عني، ولا تنفعني شفاعتهم شيئا ولا ينقذونني من الهلاك والضرر، وعندما مهد السبيل

---

١. يس / ٢٠ - ٢٩.

إلى إبطال مزاعم المشركين وبيان سخافة منطقهم، فعندئذ خاطب الناس أو الرسل بقوله: * (إني آمنت بربكم فاسمعون) * فسواء أكان الخطاب للمشركين أو للرسل فإذا بالكفار قد هاجموه فرجموه حتى قتل.

ولكنه سبحانه جزاه بالأمر بدخول الجنة، بقوله: * (قيل ادخل الجنة) * ثم هو خاطب قومه الذين قتلوه، بقوله: * (قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) *.

ثم إنه سبحانه لم يمهل القاتلين طويلا حتى أرسل جندا من السماء لإهلاكهم، يقول سبحانه: * (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) *.

أي: كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر، وهي صيحة واحدة حتى هلكوا بأجمعهم، فإذا هم خامدون ساكتون.

ودلالة الآية على بقاء النفس وإدراكها وشعورها وإرسالها الخطابات إلى من في الحياة الدنيا من الوضوح بمكان، حيث كان دخول الجنة: * (قيل ادخل الجنة) * والتمني * (يا ليت قومي) * كان قبل قيام الساعة، والمراد من الجنة هي الجنة البرزخية دون الأخروية.

إلى هنا تم بيان بعض الآيات الدالة على بقاء أرواح الشهداء

الذين بذلوا مهجهم في سبيل الله. وثمة طائفة من الآيات تدل على بقاء أرواح الكفار بعد انتقالهم عن هذه الدنيا، مقترنة بألوان العذاب، وهناك طائفة أخرى من الآيات تدل على بقاء الروح بعد رحيل الإنسان المؤمن والكافر من هذه الدار، ولنذكر هذه الآيات على وجه الإيجاز:

١. * (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) *. (١)

تدل الآية بوضوح على أن آل فرعون يعرضون على النار قبل قيام الساعة غدوا وعشيا، كما أنهم بعد قيامها يدخلون أشد العذاب، فعذابهم قبل الساعة غير عذابهم بعدها، وهو دليل صريح على حياة تلك الطغمة.

٢. * (مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) *. (٢)

تدل الآية على أن قوم نوح أغرقوا أولا فأدخلوا نارا، ولم يجدوا لأنفسهم أنصارا وليست هذه النار، نار يوم القيامة بشهادة أنه سبحانه يقول: * (فادخلوا نارا) * وهو يدل على تحقق الدخول بلا فاصل زمني بعد الغرق ولو أريد نار يوم الساعة لكان الأنسب أن يقول " فيدخلون نارا ".

---

١. غافر / ٤٦.
٢. نوح / ٢٥.

٣. * (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) *. (١)

إن الكافر حينما يواجه الموت يجد مستقبل حياته مظلما وكأنه يشاهد العذاب الأليم بأم عينه بعد موته فيتمنى الرجوع إلى الحياة الدنيا، فيجاب ب * (كلا) * وما يشاهده ليس إلا عذابا برزخيا لا عذابا أخرويا ولذلك يقول سبحانه * (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) *.

هذه الآيات وغيرها تعرب عن بقاء الحياة بعد الانتقال عن نشأة الدنيا، وإن أطلق الموت عليه فإنما هو باعتبار انتهاء أمد حياته الدنيوية واندثار بدنه وأما روحه ونفسه فهي باقية بنحو آخر تتنعم أو تعذب.

الصلة بين الحياتين: الدنيوية والبرزخية

ربما يمكن أن يقال: إن الآيات دلت على كون الشهداء والأولياء بل الكفار أحياء، ولكن لا دليل على وجود الصلة بين الحياتين وأنهم يسمعون كلامنا، وهذا هو الذي نطرحه في المقام ونقول:

دل الذكر الحكيم على وجود الصلة بين الحياة الدنيوية والبرزخية بمعنى أن الأحياء بالحياة البرزخية يسمعون كلامنا

---

١. المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠.

ويشاهدون أفعالنا، وليسوا بمنقطعين تمام الانقطاع عن الحياة الدنيوية وإليك شواهد من الآيات:

١. قال سبحانه: * (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) *. (١)

نزلت الآيات في قصة النبي صالح حيث دعا قومه إلى عبادة الله وترك التعرض لمعجزته (الناقة) وعدم مسها بسوء، ولكنهم بدل ذلك فقد عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فعمهم العذاب فأصبحوا في دارهم جاثمين، فعند ذلك عاد النبي صالح يخاطبهم وهم هلكى، بقوله: * (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) *.

وقد صدر الخطاب من النبي صالح " عليه السلام " بعد هلاكهم وموتهم، بشهادة قوله: * (فتولى عنهم) * في صدر الخطاب المصدرة بالفاء المشعرة بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين لما خاطبهم النبي صالح بهذا الخطاب.

٢. قال سبحانه: * (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم

---

١. الأعراف / ٧٨ - ٧٩.

جاثمين * الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) *. (١)

وقد وردت هذه الآية في حق النبي شعيب " عليه السلام " ودلالة الآية كدلالة سابقتها، حيث يخاطب شعيب قومه بعد هلاكهم، فلو كانت الصلة مفقودة ولم يكن الهالكون بسبب الرجفة سامعين لخطاب نبيهم، فما معنى خطابه لهم؟

٣. قال سبحانه: * (وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) *. (٢)

ترى أنه سبحانه يأمر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله وأما مكان السؤال فلعله كان في ليلة الإسراء.

السنة الشريفة والصلة بين الحياتين

ثمة روايات متضافرة بل متواترة تدل على وجود الصلة بين الحياتين، وجمع هذه الروايات بحاجة إلى تأليف كتاب مفرد. ونكتفي هنا بالحديث المتفق عليه بين المسلمين وهو تكليم النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أهل القليب.

---

١. الأعراف / ٩١ - ٩٣.
٢. الزخرف / ٤٥.

لقد انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين وهزيمة المشركين
قتل منهم قرابة سبعين من صناديدهم وساداتهم وطرحت جثث
قتلاهم في القليب، فوقف النبي " صلى الله عليه وآله وسلم "
يخاطبهم واحدا تلو الآخر، ويقول: يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة،
ويا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل، وهكذا عد من كان
منهم بالقليب، وقال: هل وجدتم عندما
وعد ربكم حقا فإني قد وجدت
ما وعدني ربي حقا؟!
فقال له أصحابه: يا رسول الله أتنادي قوما موتى؟!
فقال " عليه السلام ": عندما
أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا
يستطيعون أن يجيبوني.
يقول ابن هشام بعد هذا النقل: إن النبي " صلى الله عليه وآله
وسلم " قال: يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني
وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني
الناس.
ثم قال: هل وجدتم عندما
وعدكم ربي حقا؟!. (١)
أخرج البخاري: عن نافع أن ابن عمر أخبره، قال: اطلع النبي
" عليه السلام " على أهل القليب، فقال: وجدتم عندما
وعد ربكم حقا؟!
فقيل له: ندعوا أمواتا، فقال: عندما
أنتم بأسمع منهم، ولكن لا
يجيبون. (٢)

---

١. السيرة النبوية: ١ / ٦٤٩، السيرة الحلبية: ٢ / ١٧٩ و ١٨٠.
٢. صحيح البخاري: ٩ / ٩٨، باب عندما
جاء في عذاب القبر من كتاب الجنائز.

وأخيرا نقول: إن جميع المسلمين – على الرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين – يسلمون على رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " في الصلاة عند ختامها ويقولون:
" السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ".
وقد أفتى الإمام الشافعي وآخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد، وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متفقون على أن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " علمهم السلام وأن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم
ثابتة في حياته وبعد وفاته. (١)
فلو انقطعت صلتنا بالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بوفاته، فما معنى مخاطبته والسلام عليه يوميا؟!

سؤال وجواب

لو كانت الصلة بيننا وبين من فارقوا الحياة موجودة فما معنى قوله سبحانه: * (فإنك لا تسمع الموتى (٢)) * وقوله سبحانه: * (وما أنت بمسمع من في القبور) *. (٣)
والجواب: بملاحظة الآيات السابقة هو أن المراد من الإسماع، الإسماع المفيد، ومن المعلوم أن سماع الموتى أو من في

---

١. تذكرة الفقهاء: ٣ / ٣٣٣، المسألة ٢٩٤، الخلاف: ١ / ٤٧.
٢. الروم / ٥٢.
٣. فاطر / ٢٢.

القبور لا يجدي نفعا بعد عندما
ماتوا كافرين، وإلا فهذا هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم،
يقول: " الميت يسمع قرع النعال " في حديث أخرجه البخاري عن
أنس بن مالك عن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " قال: إن
العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع
نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له عندما
كنت تقول في هذا الرجل
محمد " صلى الله عليه وآله وسلم " فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله
إلى آخر عندما
نقل. (١)
وقد مر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يزور القبور، ويخرج آخر الليل إلى
البقيع، فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم عندما
توعدون، غدا
مأجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد. (٢)
اتفق المسلمون على تعذيب الميت في القبر، أخرج البخاري
عن ابنة خالد بن سعيد بن العاص أنها سمعت النبي " صلى الله عليه
وآله وسلم " وهو يتعوذ من عذاب القبر، وأخرج عن أبي هريرة كان
رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " يدعو: اللهم إني أعوذ بك
من عذاب القبر ومن عذاب النار. (٣)
كل ذلك يدل على أن المراد من نفي الإسماع هو الإسماع
المفيد. تحقيقا لقوله سبحانه: * (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب
ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن

---

١. البخاري: الصحيح: ٢ / ٩٠، باب الميت يسمع خفق النعال.
٢. صحيح مسلم: ٣ / ٦٣، باب عندما
يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز.
٣. البخاري: الصحيح: ٢ / ٩٩، باب التعوذ من عذاب القبر من كتاب الصلاة.

ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) * (١) حيث إن الآية صريحة في رد دعوة الكفار حيث طلبوا من الله سبحانه أن يرجعهم إلى الدنيا حتى يعملوا صالحا، فيأتيهم النداء " بكلا " فيكون تمنيهم بلا جدوى ولا فائدة كما أن سماع الموتى كذلك، لا أنهم لا يسمعون أبدا، إذ هو مخالف لما مر من صريح الآيات والروايات.

ه. طلب الشفاعة

اتفقت الأمة الإسلامية على أن الشفاعة أصل من أصول الإسلام نطق به الكتاب والسنة النبوية، وأحاديث العترة الطاهرة، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين وإن اختلفوا في بعض خصوصياتها.

وأجمع العلماء على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد الشفعاء يوم القيامة، إلا أن الكلام في المقام في طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهل يجوز أن نقول: يا رسول الله اشفع لنا عند الله، كما يجوز أن نقول: اللهم شفع نبينا محمدا " صلى الله عليه وآله وسلم " فينا يوم القيامة، أو لا يجوز؟

تظهر حقيقة الحال من خلال الوجوه التالية:

الوجه الأول: إن حقيقة الشفاعة ليست إلا دعاء النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أو الولي " عليه السلام " في حق المذنب وإذا كانت هذه حقيقتها فلا مانع من طلبها من الصالحين، لأن غاية هذا

---

١. المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠.

الطلب هو طلب الدعاء، فلو قال القائل: " يا وجيها عند الله اشفع لنا عند الله " يكون معناه ادع لنا عند ربك فهل يرتاب في جواز ذلك مسلم؟

والدليل على أن الشفاعة هو طلب الدعاء، عندما أخرجه مسلم،

عن عبد اللهبن عباس، أنه قال: سمعت رسول الله يقول: عندما من رجل

مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه. (١) أي قبل شفاعتهم فيه وليست شفاعتهم إلا دعاؤهم له بالغفران.

وعلى هذا فلا وجه لمنع الاستشفاع بالصالحين إذا كان مآله إلى طلب الدعاء.

الوجه الثاني: إن سيرة المسلمين تكشف عن جواز طلب الشفاعة في عصر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وبعده.

أخرج الترمذي في سننه عن أنس قال: سألت النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك؟ فقال: اطلبني أول عندما تطلبني على

الصراط. (٢)

نقل ابن هشام في سيرته: انه لما توفي رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " كشف أبو بكر عن وجهه وقبله، وقال: بأبي أنت و أمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا. (٣)

---

١. صحيح مسلم: ٣ / ٥٣، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه من كتاب الجنائز.

٢. سنن الترمذي: ٤ / ٦٢١، كتاب صفة القيامة.

٣. السيرة النبوية: ٢ / ٦٥٦، ط عام ١٣٧٥ ه وهو يدل على وجود الصلة بين الأحياء والأموات وقد جئنا به لتلك الغاية.

وقال الرضي في نهج البلاغة: لما فرغ أمير المؤمنين " عليه السلام " من تغسيل النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " قال كلاما وفي آخره: بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا أذكرنا عند ربك. (١)

إن كلام الإمام يدل على عدم الفرق في طلب الشفاعة من الشفيع في حين حياته وبعد وفاته، وقد كان الصحابة يطلبون الدعاء من النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بعد وفاته.

وتصور أن طلب الشفاعة من الشفيع الواقعي شرك تصور خاطئ، فإن المراد من الشرك في المقام هو الشرك في العبادة، وقد علمت أن مقومه هو الاعتقاد بألوهية المدعو أو ربوبيته أو كون مصير العبد بيده، وليس في المقام من ذلك شئ.

إن طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين – الذين أذن الله لهم بالشفاعة – إنما يعتبرهم عبادا لله مقربين لديه، وجهاء فيطلب منهم الدعاء، وليس طلب الدعاء من الميت عبادة له، وإلا لزم كون طلبه من الحي عبادة لوحدة واقعية العمل.

وقياس طلب الشفاعة من النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " بطلب الوثنيين الشفاعة من الأصنام قياس مع الفارق، لأن المشركين كانوا على اعتقاد بألوهية معبوداتهم وربوبيتها، وأين هذا من طلب الموحد الذي لا يراه إلها ولا ربا ولا من بيده مصير حياته؟! وإنما تعتبر الأعمال بالنيات لا بالصور والظواهر.

---

١. نهج البلاغة: رقم الخطبة ٢٣.

- ٦ -

انتفاع الموتى بأعمال الأحياء

ينتفع الإنسان بالإيمان إذا انضم إليه العمل الصالح ولا ينفع إيمان تجرد عن العمل، ولأجل ذلك قرن الله سبحانه العمل الصالح إلى جانب الإيمان في أكثر الآيات، وقال: * (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) *. (١) فالاعتماد على الإيمان مجردا عن العمل فعل الحمقى.

وهذا هو الإمام أمير المؤمنين علي " عليه السلام " يؤكد في خطبته على العمل، إذ يقول: " فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ". (٢)

ويقول في خطبة أخرى: " ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق والسبقة الجنة والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ". (٣)

انتفاع الإنسان بعمله وعمل غيره

كما أن الإنسان ينتفع بعمل نفسه كصلاته وصومه كذلك ينتفع بعمل غيره إذا كان له دور فيه كما إذا خلف أعمالا خيرية يستفيد منه الناس كصدقة جارية أجراها أو إذا ترك علما ينتفع به أو

---

١. العصر / ٣.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ٤٢.
٣. نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

ربى ولدا صالحا يدعو له، فهو ينتفع بصدقاته وعلومه ودعاء ولده. ونظيره الجسر الذي بناه، والنهر الذي أجراه، والمدرسة التي شيدها، والطريق الذي عبده، فقد ينتفع به لأنها أعمال قام بها بنفسه باقية بعد موته.

أخرج مسلم في صحيحه أن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم "، قال: " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له ". (١)

وأخرج مسلم، عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله: من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شئ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شئ. (٢)

ففي هذا المورد ينتفع الميت بعد موته بعمل الغير لقيامه في ترغيب ذلك الغير وتشويقه إلى فعله، فإن من سن سنة حسنة كأنه يدعو الغير بعمله هذا إلى الاقتداء به.

إنما الكلام فيما إذا لم يكن للميت نصيب في العمل، فهل يصل ثواب عمل الغير إليه إذا أهدى صاحب العمل ثوابه إليه؟

---

١. صحيح مسلم: ٥ / ٧٣، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت من كتاب الهبات.
٢. صحيح مسلم: ٨ / ٦١، باب " من سن سنة حسنة أو سيئة " من كتاب العلم.

فالظاهر من الكتاب والسنة أنه سبحانه بعميم فضله وواسع جوده يوصل ثواب عمل الغير إلى الميت فيما إذا قام الغير بعمل صالح نيابة عنه وبعث ثوابه إليه، ويدل عليه لفيف من الآيات والروايات.

١. استغفار الملائكة للمؤمنين

قال تعالى: * (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) *. (١)

وقال تعالى:

* (تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم) *. (٢)

٢. دعاء المؤمنين للسابقين إلى الإيمان

* (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) *. (٣)

فلو لم يكن لاستغفار الملائكة ودعاء المؤمنين للتابعين سبيل

---

١. المؤمن / ٧.
٢. الشورى / ٥.
٣. الحشر / ١٠.

الله مفيدا، فما معنى نقله سبحانه عنهم كما عرفت.
وأما الروايات فحدث عنها ولا حرج.
١. أخرج مسلم، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من مات وعليه صيام صام عنه وليه. (١)
٢. وأخرج أيضا عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضي عنها،
قال: نعم، فدين الله أحق أن يقضى. (٢)
٣. روى سعد بن عبادة، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أمي ماتت وعليها نذر أفيجزي عنها أن أعتق عنها، قال: أعتق عن أمك. (٣)
٤. روى أبو هريرة، أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن أبي مات وترك مالا ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم. (٤)
٥. روى سعد بن عبادة، أنه قال: يا رسول الله، إن أم سعد
ماتت، فأي الصدقة أفضل؟ قال: الماء. قال: فحفر بئرا، وقال: هذه لأم سعد. (٥)

---

١. صحيح مسلم: ٣ / ١٥٥ - ١٥٦، باب قضاء الصيام عن الميت، وفي هذا الباب روايات تركنا ذكرها للاختصار.
٢. صحيح مسلم: ٣ / ١٥٥ - ١٥٦، باب قضاء الصيام عن الميت، وفي هذا الباب روايات تركنا ذكرها للاختصار.
٣. سنن النسائي: ٦ / ٢٥٣، باب فضل الصدقة على الميت.
٤. صحيح مسلم: ٥ / ٧٣، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت من كتاب الهبات.
٥. سنن أبي داود: ٢ / ١٣٠ برقم ١٦٨١، باب " في فضل سقي الماء ".

واللام في قوله: هذه لأم سعد هي لام الاختصاص، نظير قوله سبحانه: * (إنما الصدقات للفقراء) * (١) وهي دالة على الجهة التي تصرف فيها الصدقة، وليست من قبيل اللام الداخلة على لفظ الجلالة في قولنا: نذرت لله، فإن اللام هناك للتقرب وفي المقام لبيان المحل.

وقد اقتصرنا بالقليل من الكثير فمن أراد الوقوف على مصادر الروايات فليرجع إلى المصدر أدناه. (٢)

وعلى ذلك سارت المذاهب الفقهية الأربعة حيث يفتون بانتفاع الميت بعمل الحي حتى إذا لم يوص به ولم يكن له في السعي نصيب.

فهذه الروايات والفتاوى تثبت ضابطة كلية وهي وصول ثواب كل عمل قربي إلى الميت إذا أوتي به نيابة عنه سواء أكان من قبيل الصوم والحج أو غيرهما.

وعلى هذا يعلم صحة عمل المسلمين حيث يقومون بأعمال حسنة صالحة ربما أهدوا ثوابها إلى أحبائهم وأعزتهم الموتى وهو أمر يوافق عليه الكتاب والسنة، فما يقوم به المسلمون لموتاهم من إهداء ثواب الأعمال الصالحة لهم، أو عندما يفعلونه عند قبور الأنبياء والأولياء من إطعام الطعام وتسبيل الماء بنية أن يصل ثوابها إليهم إنما

---

١. التوبة / ٦٠.

٢. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الروايات: صحيح مسلم: ٥ / ٧٣ - ٧٨، كتاب النذر، سنن النسائي: ٦ / ٢٥١ فضل الصدقة على الميت.

يقتدون فيها بسعد بن عبادة الذي سأل النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " عن حكم الصدقة عن أمه أينفعها؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم، فقال فأي الصدقة أفضل؟ قال: الماء فحفر بئرا، وقال: هذه لأم سعد.

فهم في هذا سعديون لا يريدون عبادة الموتى، بل يريدون إيصال الثواب إليهم كما فعل سعد.

النذر لأهل القبور

النذر عبارة عن إلزام الإنسان نفسه بالقيام بأداء عمل إذا قضيت حاجته كأن يقول: لله علي أن أختم القرآن إذا نجحت في الامتحان، هذا هو النذر الشرعي ويعتبر أن يكون النذر لله سبحانه ولا يجوز لغيره.

وربما يلتزم في ضمن النذر إهداء ثواب عمله إلى المقربين له كالأب والأم أو الأنبياء والأولياء، فيقول: نذرت لله أن أختم القرآن واهدي ثوابه لفلان. واللام الداخلة على لفظ الجلالة غير اللام الداخلة على لفظة " فلان " فاللام الأولى للغاية أي لغاية التقرب إلى الله سبحانه، واللام الثانية لبيان موضع الانتفاع.

هذا هو المتعارف بين المسلمين ينذرون عملا لله ثم يلتزمون بإهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين.

وربما يختصرون في العبارة ويقولون: هذه – الشاة – منذورة

للنبي " صلى الله عليه وآله وسلم "، والمراد هو جهة انتفاعه، والقرآن الكريم مشحون بكلا الاستعمالين.
قال سبحانه حاكيا عن امرأة عمران: * (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا) * (١) فاللام في هذه الآية نظير قولنا: " صليت لله ونذرت لله ".
وقال سبحانه: * (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) * (٢) واللام للفقراء بمعنى الانتفاع، نظير قولنا عند الاختصار: هذا للنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أو للإمام " عليه السلام " وقد مضى أن سعد بن عبادة لما حفر بئرا قال: هذه لأم سعد.
وبذلك ظهر أنه لا مانع من النذر للأولياء والصالحين، على ما عرفت من تفسيره.
ولأجل إيضاح الحال نأتي بكلام بعض المفكرين وعلماء الإسلام.
يقول الخالدي: إن المسألة تدور مدار نيات الناذرين، وإنما الأعمال بالنيات فإن كان قصد الناذر الميت نفسه والتقرب إليه بذلك لم يجز، قولا واحدا، وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء - بوجه من الوجوه - به وثوابه لذلك المنذور له سواء عين وجها من

---

١. آل عمران / ٣٥.
٢. التوبة / ٦٠.

وجوه الانتفاع أو أطلق القول فيه، وكان هناك عندما يطرد الصرف فيه
في عرف الناس أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك – ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور. (١)
وقال العزامي في كتاب " فرقان القرآن ": "... ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للأموات – من الأنبياء والأولياء – إلا الصدقة عنهم وجعل ثوابها إليهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموات واصلة إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة. (٢)
أخرج أبو داود عن ميمونة أن أباها قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله إني نذرت إن ولد لي ذكر أن أنحر على رأس " بوانة " في عقبة من الثنايا، عدة من الغنم.
قال الراوي عنها: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين.
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل من الأوثان شئ؟
قال: لا.
قال: أوف بما نذرت به لله. (٣)
تجد أن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " يؤكد السؤال عن

---

١. صلح الإخوان: للخالدي: ١٠٢ وما بعده.
٢. فرقان القرآن: ١٣٣.
٣. سنن أبي داود: ٢ / ٨١.

وجود الأصنام في المكان الذي تذبح فيه الذبائح أن هذا دليل على أن النذر الحرام هو النذر للأصنام حيث جرت عادة أهل الجاهلية على ذلك كما قال تعالى: * (... وما ذبح على النصب... ذلكم فسق) *. (١)

وكل من وقف على أحوال الزائرين للعتبات المقدسة ومراقد أولياء الله الصالحين يجد أنهم ينذرون لله تعالى ولرضاه، ويذبحون الذبائح باسمه عز وجل بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها وانتفاع الفقراء بلحومها.

---

١. المائدة / ٣.

- ٧ -

التبرك بآثار الأنبياء والصالحين

جرت سنة الله الحكيمة على إجراء فيضه إلى الناس عن طريق الأسباب العادية، كما هو المشاهد لكل واحد منا إلا أنه سبحانه ربما يجري فيضه عن طريق علل غير مألوفة أو خارقة للعادة لغايات مختلفة، فتارة تكون الغاية هي الاعجاز وإثبات النبوة وأخرى تكون هي إجلال الشخص وتكريمه.

أما الأول، فكالمعاجز التي يأتي بها الأنبياء بإذن الله سبحانه في مقام الدعوة والتحدي، والقرآن يعج بهذا النوع من المعجزات.

وأما الثاني: فنذكر منه نموذجين:

قال سبحانه: * (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) *. (١)

وقال سبحانه: * (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) *. (٢)

---

١. آل عمران / ٣٧.
٢. مريم / ٢٥.

وما ورد في هذه الآيات من ظهور فيضه سبحانه على خاصة أوليائه إنما هو من باب الكرامة لا الإعجاز، فلم تكن مريم " عليها السلام " مدعية للنبوة حتى تتحدى بهذه الكرامة، بل كان تفضلا من الله سبحانه عليها في فترات متلاحقة.

ويقرب مما ذكرنا قوله سبحانه: * (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا... * فلما أن جاء البشير ألقيه على وجهه فارتد بصيرا) *. (١)

ومما لا شك فيه أن يوسف لم يكن مدعيا للنبوة أمام إخوته حتى يتحدى بهذه الكرامة، وإنما كان تفضلا من الله عن هذا الطريق لإعادة بصر أبيه يعقوب.

هذه الآيات توقفنا على أنه سبحانه: يجري فيضه على عباده عن طريقين فتارة عن طريق الأسباب العادية، وأخرى عن طريق أسباب غير عادية.

وأما تأثير تلكم الأسباب غير العادية كالأسباب العادية فكلها بإذن الله سبحانه.

وعلى ضوء ذلك كان المسلمون يتبركون بآثار رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " حيث يتبركون بشعره وبفضل وضوئه وثيابه وآنيته ومس جسده الشريف، إلى غير ذلك من آثاره الشريفة

---

١. يوسف / ٩٣ - ٩٦.

التي رواها الأخيار عن الأخيار.
فصار التبرك بها سنة الصحابة واقتدى آثارهم من نهج نهجهم من التابعين والصالحين.
قال ابن هشام في الفصل الذي عقده لصلح الحديبية: إن قريشا بعثت عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " فجلس بين يديه وبعد عندما وقف على نية الرسول من خروجه إلى مكة رجع إلى قومه وأخبرهم بما دار بينه وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: إن محمدا لا يتوضأ إلا وابتدر أصحابه بماء وضوئه، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه، ثم قال: يا معشر قريش لقد رأيت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ أبدا فروا رأيكم. (١)
وقد ألف غير واحد من علماء الإسلام عندما قام به الصحابة من التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذكر عناوينها:
التبرك بتحنيك الأطفال.
التبرك بالمسح والمس.
التبرك بفضل وضوئه وغسله.
التبرك بسؤر شرابه وطعامه.

---

١. السيرة النبوية: ابن هشام: ٢ / ٣١٤، صلح الحديبية.

إن تبرك الصحابة لم يقتصر على ذلك بل كانوا يتبركون بماء أدخل فيه يده المباركة، وبماء من الآنية التي شرب منها، وبشعره، وعرقه، وظفره، والقدح الذي شرب منه، وموضع فمه، ومنبره، والدنانير التي أعطاها، وقبره وجرت عادتهم على التبرك به، ووضع الخد عليه والبكاء عنده.

وقد ألف المحقق العلامة محمد طاهر بن عبد القادر كتابا باسم " تبرك الصحابة "، وهو من علماء مكة المكرمة قال فيه: أجمعت صحابة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " على التبرك بآثار رسول الله والاهتمام في جمعها وهم الهداة المهديون والقدوة الصالحون فيتبركون بشعره وبفضل وضوئه وعرقه وثيابه وآنيته وبمس جسده الشريف، وبغير ذلك مما عرف من آثاره الشريفة التي صحت به الأخبار عن الأخيار.

وقد وقع التبرك ببعض آثاره في عهده وأقره ولم ينكر عليه، فدل ذلك دلالة قاطعة على مشروعيته، ولو لم يكن مشروعا لنهى عنه وحذر منه.

وكما تدل الأخبار الصحيحة وإجماع الصحابة على مشروعيته تدل على قوة إيمان المتبركين وشدة محبتهم وموالاتهم ومتابعتهم للرسول الأعظم " صلى الله عليه وآله وسلم " كقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا (١)

---

١. تبرك الصحابة: ٥٠.

البدعة في اللغة بمعنى الانشاء والابداع، وأما في مصطلح
الفقهاء هو إدخال عندما
ليس من الدين في الدين، وعد عندما
ليس من
الدين منه، وقد أطبق المسلمون على تحريمه لإطباق الأدلة عليه
وإلى المعنى المصطلح يشير صاحب القاموس، ويقول: البدعة:
الحدث في الدين بعد الإكمال أو عندما
استحدث في الدين بعد النبي
صلى الله عليه وآله وسلم من الأهواء.
فالمعنى الجامع للبدعة هو الافتراء على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم
، ونشر الافتراء بعنوان أنه من الدين، قال سبحانه: * (الله أذن لكم أم
على الله تفترون) * (١) فالآية تدل على أن كل عندما
ينسب إلى الله سبحانه
بلا إذن منه فهو أمر محرم، ومن أدخل في الدين عندما
ليس من الدين أو
لا يعلم أنه منه، فقد افترى على الله.
وقد عد المفتري على الله من أظلم الناس، قال سبحانه:
* (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب ب آياته إنه لا يفلح
الظالمون) *. (٢)
هذا، ودلت السنة أيضا على حرمة البدعة، قال رسول
الله " صلى الله عليه وآله وسلم ":

---

١. يونس / ٥٩.
٢. الأنعام / ٢١.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة في النار.

وقد أوضحه ابن حجر العسقلاني بقوله: المحدثات جمع محدثة، والمراد بها عندما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة. (١)

والروايات في تحريم البدعة كثيرة اكتفينا بما سبق، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المصدر المذكور في الهامش. (٢)

فإذا كانت البدعة هي الافتراء على الله ورسوله والتلاعب بدينه، وإدخال عندما ليس من الدين، أو عندما لم يعلم أنه من الدين في الدين، فعلى الباحث المتضلع تمييز عندما ليس ببدعة عن البدعة وإن اشتركا في إطلاق تسمية " البدعة " عليهما، وإليك أقسامها:

الأول: أن يقوم به الإنسان بما أنه من الدين، وهو إما ليس من الدين قطعا أو يشك إنه من الدين ومع ذلك يدخله فيه وينشره بين الأمة.

وعلى هذا فلو قام أحد بعمل بديع ليس له مثيل، ولكن من

---

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٣ / ٢٥٣.
٢. جامع الأصول لابن الأثير: ٩ / ٥٦٦.

دون أن ينسبه إلى الدين فهو ليس ببدعة، كالصنائع الجديدة، والألعاب الرياضية، التي ابتدعها الإنسان لتوفير الراحة لنفسه إلى غير ذلك من الفوائد المترتبة عليها.

فهذه الصنائع والألعاب لم تكن في عصر الرسول ولا الصحابة ولا التابعين ولكن الإنسان أبدعها وأنشأها دون أن يعزوها إلى الدين، فإذا لا تكون بدعة.

نعم مجرد إنها ليست بدعة لا يكون دليلا على حليتها بل يستنبط حكمها من جهة الحلية والحرمة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

فالصنائع والألعاب الرياضية من المحدثات ولكنهما حلالان شرعا لعدم انطباق عنوان محرم عليهما، بخلاف بعض المحدثات كاختلاط النساء والرجال في الحفلات، فهو أمر محدث محرم، لانطباق عنوان محرم عليه وهو اختلاط الرجال بالنساء السافرات.

الثاني: عندما يبدعه الإنسان وينشئه وليس له نظير في السابق، ولكن يأتي به باسم الدين وله أصل كلي في الشريعة وإن لم ترد الخصوصية فيها. فهذا عندما يسمى بدعة لغة ولا يكون بدعة شرعا.

أما كونه بدعة لغة فلكونه أمرا جديدا وإنشاء حديثا في الدين، وأما أنه ليس ببدعة شرعا، لوجود أصل كلي له فيها مسوغ له، وإليك الأمثلة التالية:

أ. إن الدفاع عن بيضة الإسلام وصيانة حدوده من الأعداء أصل

ثابت في القرآن الكريم، قال سبحانه: * (وأعدوا لهم عندما استطعتم من
قوة) * (١) وهذا هو الأصل الثابت في الإسلام، وأما كيفية الدفاع فلم يرد فيها دليل خاص، بل أوكله الشارع إلى مقتضيات الزمان فالتزود بالأسلحة الحديثة كالسفن الحربية والطائرات المقاتلة إلى غير ذلك من وسائل الدفاع ليس بدعة، بل تجسيد للأصل الثابت في الشرع أعني: * (وأعدوا لهم عندما
استطعتم من قوة) *، فهذا النوع من التسليح ورد في الشرع أصله وإن لم يرد بخصوصياته.

ب. حث الإسلام على الإحسان إلى اليتامى والمساكين والرأفة بهم والعطف عليهم وحفظ أموالهم بيد أن هذا الأمر الكلي الذي جاء في الشرع له أساليب مختلفة تجاري مقتضيات كل عصر ومصر وإمكانياتهم المتاحة، فاللازم امتثال عندما
ندب إليه الشرع، أعني:
الأصل الكلي، وأما تبيين كيفيته فمتروك إلى المستجدات الزمانية.

ج. ندب الشرع المقدس إلى التربية والتعليم ومكافحة الأمية ولا شك أن لهذا الأمر الكلي أشكالا وألوانا مختلفة تتبدل حسب تبدل الظروف حيث كانت التربية والتعليم في العصور السابقة تتحقق من خلال الكتابة بالقصب والدواة، وجلوس المتعلم للاستماع إلى معلمه، إلا أن ذلك تطور اليوم إلى أساليب جديدة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة كالإذاعة والتلفزة والكومبيوتر

---

١. الأنفال / ٦٠.

والأشرطة إلى غيرها من وسائل التعليم الحديثة.
إن الشارع المقدس لا يخالف هذا التطور ولا يمنع من استخدام الأجهزة والأساليب الحديثة، وإنما أمر بالتعليم والتعلم، وترك اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات.
ولو كان أصر على اتخاذ كيفية خاصة، لفشل في هدفه المقدس ولفقد مبررات خلوده واستمراره، لأن الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة التي يقترحها والكيفية الخاصة التي يحددها.
٣. عندما
إذا قام به إنسان باسم الدين وكان أمرا حديثا ليس له مثيل في السابق ولم يكن له أصل كلي يعضده ويسوغه ويضفي عليه الشرعية.
فهذه هي البدعة المصطلحة المحرمة على الإطلاق، فمن حاول تغيير الأذان والإقامة بتنقيص أو زيادة أو زاد في الصلاة أو نقص منها ونسب كل ذلك إلى الشرع فهو بدعة محرمة.
وبالجملة من أراد التدخل في الشريعة الإسلامية في عباداتها ومعاملاتها وسياساتها بأن ينسب إليها عندما
ليس منها أو لم يعلم أنه
منها فقد أبدع وافترى على الله الكذب.
الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمة والصالحين
ومما ذكرنا يعلم حكم الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمة

والصالحين الذين لهج الكتاب والسنة بمدحهم، فإن الاحتفال على النحو الرائج لم يرد في الشرع بخصوصه ولكن ورد الأصل الكلي الذي يسوغ هذا الاحتفال ويضفي عليه الشرعية.

فقد أمر الكتاب والسنة بحب النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " ووده أولا وتكريمه وتوقيره ثانيا، وحث عليهما في الشريعة قال سبحانه: * (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) *. (١)

١. وقال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم ": لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. (٢)

٢. قال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم ": والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب الناس إليه من والده وولده. (٣)

٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب في الله، ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا. (٤)

---

١. التوبة / ٢٤.
٢. جامع الأصول: ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨ برقم ٢٠ و ٢١ و ٢٢.
٣. جامع الأصول: ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨ برقم ٢٠ و ٢١ و ٢٢.
٤. جامع الأصول: ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨ برقم ٢٠ و ٢١ و ٢٢.

وعلى ضوء ذلك فإقامة الاحتفالات والمهرجانات في مواليدهم وإلقاء الخطب والقصائد في مدحهم وذكر منزلتهم في الكتاب والسنة تجسيد للحب الذي أمر الله ورسوله به، شريطة أن لا تقترن تلك الاحتفالات بالحرام، ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أي قرن من القرون فقد انطلق من هذا المبدأ أي حب النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " الذي أمر به القرآن والسنة.

هذا هو مؤلف " تاريخ الخميس " يقول في هذا الصدد: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الشريف ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم. (١)

وقال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده صلى الله عليه وآله وسلم يعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم... فرحم الله امرء اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعيادا ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعياه داء. (٢)

---

١. تاريخ الخميس: ١ / ٣٢٣ للديار بكري.
٢. المواهب اللدنية: ١ / ٢٧.

- ٩ -

البكاء على الميت

الحزن والتأثر عند فقدان الأحبة أمر جبلت عليه الفطرة الإنسانية فإذا ابتلي بمصاب عزيز من أعزائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه يحس بحزن شديد يتعقبه ذرف الدموع على وجناته، دون أن يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

ولا أجد أحدا ينكر هذه الحقيقة إنكار جد وموضوعية ومن الواضح بمكان أن الإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يخالفها.

قال سبحانه: * (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها) *. (١)

ولا يمكن لتشريع عالمي أن يحرم الحزن والبكاء على فقد الأحبة ويحرم عليه البكاء إذا لم يقترن بشئ يغضب الرب.

ومن حسن الحظ نرى أن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ساروا على وفق الفطرة.

وهذا رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " يبكي على ولده إبراهيم، ويقول: " العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا عندما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ". (٢)

---

١. الروم / ٣٠.

٢. سنن أبي داود: ١ / ٥٨، سنن ابن ماجة: ١ / ٤٨٢.

روى أصحاب السير والتاريخ، أنه لما احتضر إبراهيم ابن
النبي، جاء " صلى الله عليه وآله وسلم " فوجده في حجر أمه، فأخذه
ووضعه في حجره، وقال: " يا إبراهيم إنا لن نغني عنك من الله شيئا -
ثم ذرفت عيناه وقال: - إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين
ويحزن القلب ولا نقول عندما
يسخط الرب، ولولا أنه أمر حق ووعد
صدق وأنها سبيل مأتية لحزنا عليك حزنا شديدا أشد من هذا ".
ولما قال له عبد الرحمان بن عوف: أو لم تكن نهيت عن
البكاء؟ أجاب بقوله: " لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين وآخرين،
صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان،
وصوت عن نغمة لهو، وهذه رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم ". (١)
وليس هذا أول وآخر بكاء منه " صلى الله عليه وآله وسلم " عند
ابتلائه بمصاب أعزائه، بل كان " صلى الله عليه وآله وسلم " بكي على
ابنه " طاهر " ويقول: " إن العين تذرف وإن الدمع يغلب والقلب يحزن
ولا نعصي الله عز وجل ". (٢)
وقد قام العلامة الأميني في موسوعته الكبيرة " الغدير " بجمع
موارد كثيرة بكى فيها النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والصحابة
والتابعون على موتاهم وأعزائهم عند افتقادهم، وإليك نص عندما
جاء
به ذلك المتتبع الخبير.
وهذا هو " صلى الله عليه وآله وسلم " لما أصيب حمزة - رضي

---

١. السيرة الحلبية: ٣ / ٣٤٨.
٢. مجمع الزوائد للهيثمي: ٣ / ٨.

الله عنه – وجاءت صفية بنت عبد المطلب – رضي الله عنها – تطلبه فحال بينها وبينه الأنصار، فقال " صلى الله عليه وآله وسلم ": دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " وإذا نشجت نشج، وكانت فاطمة " عليها السلام " تبكي، ورسول الله كلما بكت يبكي، وقال: لن أصاب بمثلك أبدا. (١)

ولما رجع رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " من أحد بكت نساء الأنصار على شهدائهن، فبلغ ذلك النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم: لا تبكين أحدا حتى تبدأن بحمزة، قال: فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميتا إلا بدأن بحمزة. (٢)

وهذا هو " صلى الله عليه وآله وسلم " ينعي جعفرا، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وعيناه تذرفان. (٣)

وهذا هو " صلى الله عليه وآله وسلم " زار قبر أمه وبكى عليها وأبكى من حوله. (٤)

وهذا هو " صلى الله عليه وآله وسلم " يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت ودموعه تسيل على خده. (٥)

وهذا هو " صلى الله عليه وآله وسلم " يبكي على ابن لبعض

---

١. إمتاع المقريزي: ص ١٥٤.
٢. مجمع الزوائد: ٦ / ١٢٠.
٣. صحيح البخاري: كتاب المناقب في علامات النبوة في الإسلام، سنن البيهقي: ٤ / ٧٠.
٤. سنن البيهقي: ٤ / ٧٠، تاريخ الخطيب البغدادي: ٧ / ٢٨٩.
٥. سنن أبي داود: ٢ / ٦٣، سنن ابن ماجة: ١ / ٤٤٥.

بناته، فقال له عبادة بن الصامت: عندما
هذا يا رسول الله " صلى الله عليه
وآله وسلم "؟ قال: الرحمة التي جعلها الله في بني آدم وإنما يرحم
الله من عباده الرحماء. (١)
وهذه الصديقة الطاهرة تبكي على رسول الله " صلى الله عليه
وآله وسلم "، وتقول: يا أبتاه من ربه عندما
أدناه، يا أبتاه أجاب ربا دعاه،
يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه. (٢)
وهذه هي - سلام الله عليها - وقفت على قبر أبيها الطاهر،
وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت
تقول:
ماذا على من شم تربة أحمد * أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو أنها * صبت على الأيام صرن لياليا
وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله " صلى الله
عليه وآله وسلم " ويرثيه بقوله:
يا عين فابكي ولا تسأمي * وحق البكاء على السيد
وهذا حسان بن ثابت يبكيه " صلى الله عليه وآله وسلم "
ويقول:
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت * عيون ومثلاها من الجفن أسعد

---

١. سنن أبي داود: ٢ / ٥٨، سنن ابن ماجة: ١ / ٤٨١.
٢. صحيح البخاري، باب مرض النبي ووفاته، مسند أبي داود: ٢ / ١٩٧، سنن النسائي: ٤ / ١٣، مستدرك الحاكم: ٣ / ١٦٣، تاريخ الخطيب: ٦ / ٢٦٢.

ويقول:
يبكون من تبكي السماوات يومه * ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
ويقول:
يا عين جودي بدمع منك إسبال * ولا تملن من سح وإعوال
وهذه " أروى " بنت عبد المطلب تبكي عليه " صلى الله عليه
وآله وسلم " وترثيه بقولها:
ألا يا عين! ويحك أسعديني * بدمعك عندما
بقيت وطاوعيني
ألا يا عين! ويحك واستهلي * على نور البلاد واسعديني
وهذه عاتكة بنت عبد المطلب ترثيه وتقول:
عيني جودا طوال الدهر وانهمرا * سكبا وسحا بدمع غير تعذير
يا عين فاسحنفري بالدمع واحتفلي * حتى الممات بسجل غير منذور
يا عين فانهملي بالدمع واجتهدي * للمصطفى دون خلق الله بالنور

وهذه صفية بنت عبد المطلب تبكي عليه وترثيه " صلى الله عليه وآله وسلم " وتقول:

أفاطم بكي ولا تسأمي * بصحبك عندما
طلع الكوكب
هو المرء يبكي وحق البكاء * هو الماجد السيد الطيب

وتقول:

أعيني! جودا بدمع سجم * يبادر غربا بما منهدم
أعيني! فاسحنفرا واسكبا * بوجد وحزن شديد الألم

وهذه هند بنت الحارث بن عبد المطلب تبكي عليه وترثيه وتقول:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري * كما تنزل ماء الغيث فانثعبا

وهذه هند بنت أثاثة ترثيه وتقول:

ألا يا عين أبكي لا تملي * فقد بكر النعي بمن هويت

وهذه عاتكة بنت زيد ترثيه وتقول:

وأمست مراكبه أوحشت * وقد كان يركبها زينها
وأمست تبكي على سيد * تردد عبرتها عينها

وهذه أم أيمن ترثيه " صلى الله عليه وآله وسلم " وتقول:
عين جودي فإن بذلك للدمع * شفاء فأكثري من بكاء
بدموع غزيرة منك حتى * يقضي الله فيك خير القضاء
وهذه عمة جابر بن عبد الله جاءت يوم أحد تبكي على
أخيها عبد الله بن عمر، وقال جابر: فجعلت أبكي وجعل القوم
ينهوني ورسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " لا ينهاني، فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أبكوه ولا تبكوه فوالله عندما
زالت الملائكة تظلله
بأجنحتها حتى دفنتموه. (١)
نعم روي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر أن رسول
الله " صلى الله عليه وآله وسلم " قال: " إن الميت يعذب ببكاء أهله ". (٢)
أقول: إن ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن
كثيرة أثبتها التاريخ.
منها: أنه بكى على النعمان بن مقرن المزني لما جاءه نعيه
فخرج ونعاه إلى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي. (٣)
ومنها: بكاؤه على خالد بن الوليد عند عندما
مات وامتنعت النساء

---

١. الغدير: ٦ / ١٦٤ - ١٦٧.
٢. صحيح مسلم: ٣ / ٤١ - ٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.
٣. العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: ٣ / ٢٣٥.

من البكاء عليه، فلما انتهى ذلك إلى عمر، قال: وما على نساء بني المغيرة أن يرقن من دمعهن على أبي سليمان عندما
لم يكن لغوا ولا
لقلقة. (١)
ومنها: بكاؤه على أخيه زيد بن الخطاب، وكان صحبه رجل من بني عدي بن كعب فرجع إلى المدينة فلما رآه عمر دمعت عيناه، وقال: وخلفت زيدا قاضيا وأتيتني. (٢)
فالبكاء المتكرر من الخليفة يهدينا إلى أن المراد من الحديث – لو صح سنده – معنى آخر، كيف وأن ظاهر الحديث لو قلنا به فإنه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه: * (ولا تزر وازرة وزر أخرى) *. (٣) فأي معنى لتعذيب الميت ببكاء غيره عليه!!
فقه الحديث
كل هذه النقول توقفنا على أن المراد من الحديث " إن الميت يعذب... " – إن صح سنده – غير عندما
يفهم من ظاهره، وقد كان محتفا
بقرائن سقطت عند النقل، ولأجل ذلك توهم البعض حرمة البكاء على الميت استنادا إلى هذا الحديث، غافلا عن مرمى الحديث ومغزاه.
أخرج مسلم في صحيحه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال:

---

١. العقد الفريد: ٣ / ٢٣٥.
٢. المصدر نفسه.
٣. فاطر / ١٨.

ذكر عند عائشة قول ابن عمر: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، سمع شيئا فلم يحفظه إنما مرت على رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " جنازة يهودي، وهم يبكون عليه، فقال: أنتم تبكون وأنه ليعذب. (١)

وأخرج أبو داود في سننه عن عروة عن عبد اللهبن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت - وهي تعني ابن عمر -: إنما مر النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " على قبر يهودي فقال: إن صاحب هذا ليعذب وأهله يبكون عليه. ثم قرأت * (ولا تزر وازرة وزر أخرى) *. (٢)

قال الشافعي: عندما روت عائشة عن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " أشبه أن يكون محفوظا عنه " صلى الله عليه وآله وسلم " بدلالة الكتاب والسنة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عز وجل: * (ولا تزر وازرة وزر أخرى...) * و * (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) * (٣) وقوله: * (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) * (٤) وقوله: * (... لتجزى كل نفس بما تسعى) * (٥) فإن قيل: أين دلالة السنة؟ قيل: قال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " لرجل: ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: أما أنه لا يجني عليك ولا تجني عليه.

---

١. صحيح مسلم: ٣ / ٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.
٢. سنن أبي داود: ٣ / ١٩٤، برقم ٣١٢٩.
٣. النجم / ٣٩.
٤. الزلزلة / ٧ - ٨.
٥. طه. / ١٥.

فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أن جناية كل امرئ عليه، كما أن عمله لا لغيره ولا عليه ". (١)

وأخرج مسلم عن ابن عباس: قال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم ": أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدث رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد ولكن قال: إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن: * (ولا تزر وازرة وزر أخرى) *. (٢)

وما أخرجه مسلم عن هشام بن عروة هو الحق دون عندما أخرجه

عن ابن عباس لأن تعذيب الكافر ببكاء أهله عليه أيضاد يضاد الذكر الحكيم.

---

١. اختلاف الحديث بهامش كتاب الأم للشافعي: ٧ / ٢٦٧.

٢. صحيح مسلم: ٣ / ٤٣، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

- ١٠ -

الحلف على الله بحق الأولياء

إن القرآن الكريم يصف بعض عباد الله، بقوله:

* (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) *. (١)

فلو أن أحدا قام في آناء الليل وصلى ناشئته ثم ابتهل إلى الله متضرعا، وقال: " اللهم إني أسألك بحق المستغفرين بالأسحار اغفر لي ذنبي " فهل يجوز ذلك أو لا؟

يمكن استكشاف الحكم من الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار.

١. قد أخرج الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد عن عثمان بن حنيف: أن رجلا ضريرا أتى النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " وقال: أدعو الله أن يعافيني، ثم نقلوا أن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعوا بهذا الدعاء: " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني

---

١. آل عمران / ١٧.

أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه في ". (١)
٢. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " الدعاء التالي: " اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا ". (٢)
٣. أخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله: (صلى الله عليه وآله وسلم) لما اقترف آدم الخطيئة رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. (٣)
٤. أخرج الحاكم في مستدركه، والطبراني في معجمه الأوسط، وأبو نعيم في حلية الأولياء، عن أنس بن مالك، أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد، حفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد، حفره رسول الله بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ، دخل رسول الله فاضطجع فيه، وقال: الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الرحمين. (٤)

---

١. صحيح الترمذي ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨، سنن ابن ماجة: ١ / ٤٤١ برقم ١٣٨٥، مسند أحمد: ٤ / ١٣٨، إلى غير ذلك من المصادر، وقد مر في مبحث التوسل.
٢. سنن ابن ماجة: ١ / ٢٥٦ برقم ٧٧٨، باب المساجد، مسند أحمد: ٣ / ٢١.
٣. البيهقي: دلائل النبوة: ٥ / ٤٨٩.
٤. الحاكم: المستدرك: ٣ / ١٠٨، الطبراني، المعجم الأوسط: ٣٥٦، حلية الأولياء: ٣ / ١٢١.

إن هذه الأدعية وإن خلت من لفظ القسم بعينه إلا أنها تضمنت معنى القسم لوجود باء القسم فيها فكأنما يقول: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك أي أقسمك بحقهم.

وقد ورد الحلف على الله بحق الأولياء في غير واحد من أدعية أئمة أهل البيت " عليهم السلام " الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه بنص النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " حيث قال: " إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ". (١) يقول الإمام الطاهر الحسين بن علي " عليهما السلام " في دعاء يوم عرفة وهو يناجي ربه: " بحق من انتخبت من خلقك، وبمن اصطفيته لنفسك، بحق من اخترت من بريتك، ومن اجتبيت لشأنك، بحق من وصلت طاعته بطاعتك، وبحق من نيطت معاداته بمعاداتك. (٢)

لما زار الإمام الصادق " عليه السلام " مرقد جده الإمام أمير المؤمنين " عليه السلام " دعا في ختام الزيارة بقوله: اللهم استجب دعائي، واقبل ثنائي، وأجمع بيني وبين أوليائي، بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ". (٣)

وهذه الأدعية عن أئمة أهل البيت " عليهم السلام " تدل على جواز الحلف على الله بحق أوليائه الصالحين.

---

١. حديث متواتر عن كلا الفريقين.
٢. ابن طاووس: الاقبال: ٣٠٩.
٣. الطوسي: مصباح المتهجد: ٦٨٢.

سؤال وإجابة
ربما يقال: إن المسألة بحق المخلوقين غير جائز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق.
والجواب أولا: إن هذا اجتهاد في مقابل النص الصريح، إذ لو لم يكن للمخلوق حق في ذمة الخالق، فلماذا أقسم النبي آدم " عليه السلام " والنبي محمد " صلى الله عليه وآله وسلم " على الله بالحقوق، الواردة في الروايات؟
وثانيا: إنه سبحانه يثبت لعباد الله الصالحين حقوقا في ذمته، ويقول: * (وكان حقا علينا نصر المؤمنين (١) *، * (وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل) * (٢)، * (كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) *: (٣)، * (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) *. (٤)
وثمة مجموعة من الروايات تشير إلى وجود الحق للمخلوق في ذمة الخالق، وإليك نماذج منها:
١. " حق على الله عون من نكح التماس العفاف مما حرم الله ". (٥)

---

١. الروم / ٤٧.
٢. التوبة / ١١١.
٣. يونس / ١٠٣.
٤. النساء / ١٧.
٥. الجامع الصغير للسيوطي: ٢ / ٣٣.

٢. قال رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم ": " ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد التعفف ". (١)

٣. " أتدري عندما حق العباد على الله ". (٢)

نعم من الواضح أنه ليس لأحد بذاته حق على الله تعالى، حتى لو عبد الله قرونا طويلة، لأن كل عندما للعبد من حول وقوة، ونعمة فهو لله تعالى فلم يبذل العبد شيئا من نفسه في سبيل الله حتى يستحق بذاته الثواب.

فإذا فما معنى الحق؟

والجواب: إن المقصود من الحق في هذه الأدعية أو الأحاديث هو المنزلة التي يمنحها الله لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم، لكن بتفضل وعناية منه، لا باستحقاق من العبد، فالحق الذي يقسم به على الله حق، جعله الله على ذمته لا أن العبد استحق حقا على الله، ونظير هذا استقراضه سبحانه من عبده، يقوله: * (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) *. (٣)

إن هذا التعبير نابع من لطفه سبحانه وعنايته الفائقة بعباده الصالحين حتى يعتبر ذاته المقدسة مديونا لعباده، وعباده ديانا

---

١. سنن ابن ماجة: ٢ / ٨٤١.
٢. النهاية لابن الأثير: مادة حق.
٣. البقرة / ٢٤٥.

أصحاب الحق، ففي هذا الأمر من الترغيب والتشجيع إلى طاعة الله ما لا يخفى.

- ١١ -

الحلف بغير الله

هل يجوز الحلف بغير الله سبحانه كالحلف بالنبي " صلى الله عليه وآله وسلم " والقرآن والكعبة وغيرها من المقدسات أو لا؟

عندما نستنطق القرآن في ذلك، نرى أنه سبحانه حلف في سورة الشمس وحدها بثمانية أشياء من مخلوقاته هي: الشمس، ضحاها، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، والنفس الإنسانية. (١)

وكذلك ورد الحلف بغير الله في سورة النازعات والمرسلات والطارق والقلم والعصر والبلد وإليك نماذج من الحلف بالمخلوق في غير تلك السور.

* (والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين) *. (٢)

* (والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى) *. (٣)

* (والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر) *. (٤)

---

١. الشمس / ١ - ٧.
٢. التين / ١ - ٣.
٣. الليل / ١ - ٢.
٤. الفجر / ١ - ٤.

* (والطور * وكتاب مسطور * في رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور) *. (١)
* (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) *. (٢)
فلو كان الحلف بغير الله شركا وأمرا قبيحا، فكيف يصدر منه سبحانه وقد وصف الشرك بالفحشاء، وقال: * (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله عندما
لا تعلمون) *. (٣)
والقبيح قبيح مطلقا دون فرق بين ارتكابه من قبل الخالق أو المخلوق، وهذا يعرب عن أن الحلف بغير الله سبحانه إذا كان لغاية عقلائية أمر لا محذور فيه.
ثم إن الغاية - غالبا - من حلفه سبحانه بالأمور الكونية هي الإشارة إلى الأسرار المكنونة فيها ودعوة الناس إلى الإمعان فيها وكشف رموزها، ولكن الغاية في حلف الإنسان بالذوات القدسية - وراء الإشارة إلى قدسيتهم - هي إما الترغيب أو الترهيب أو كسب ثقة المقابل.
وإذا عطفنا النظر إلى السنة النبوية نجد أن رسول الله يحلف

---

١. الطور / ١ - ٦.
٢. الحجر / ٧٢.
٣. الأعراف / ٢٨.

بغير الله سبحانه.
أخرج مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة، قال:
" جاء رجل إلى النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ فقال: أما - وأبيك - لتنبأنه أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء ". (١)
وأخرج أيضا عن طلحة بن عبيد الله، قال: " جاء رجل إلى رسول الله - من نجد - يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خمس صلوات في اليوم والليل.
فقال: هل علي غيرهن؟
قال: لا... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان.
فقال: هل علي غيرها؟
قال: لا... إلا أن تطوع، وذكر له رسول الله الزكاة.
فقال الرجل: هل علي غيره؟
قال: لا... إلا أن تطوع.
فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.
فقال رسول الله: أفلح - وأبيه - (٢) إن صدق.

---

١. صحيح مسلم: ٣ / ٩٤، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة.
٢. أي: قسما بأبيه، و " الواو " للقسم.

أو قال: دخل الجنة - وأبيه - إن صدق. (١)
وثمة أحاديث أخرى طوينا الكلام عن ذكرها مخافة الإطالة.
سؤال وجواب
أخرج النسائي في سننه، عن ابن عمر: أن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " قال: من حلف بغير الله فقد أشرك. (٢)
ومعه كيف يجوز الحلف بغير الله سبحانه؟
والجواب: إن رسول الله " صلى الله عليه وآله وسلم " يشير في قوله هذا إلى نوع خاص من الحلف الرائج في ذلك العصر وهو الحلف بالأصنام كاللات والعزى، ويدل على ذلك عندما أخرجه
النسائي أيضا في سننه عن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " أنه قال: " من حلف، فقال في حلفه باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله ". (٣)
وأخرج أيضا عن النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " قال: لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد. (٤)
إن الحديث الأول يكشف عن أن رواسب الجاهلية عندما زالت
عالقة في بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم، فأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقولوا بعد الحلف " لا إله إلا الله "، لأجل القضاء على تلك
الخلفيات.

---

١. صحيح مسلم: ١ / ٣٢، باب " الإسلام عندما هو وبيان خصاله " من كتاب الإيمان.
٢. سنن النسائي: ٧ / ٨.
٣. سنن النسائي: ٧ / ٨.
٤. سنن النسائي: ٧ / ٨.

كما أن الحديث الثاني يشير إلى أن وجه المنع عن الحلف بالآباء والأمهات لشركهم ويؤيد ذلك اقترانها بقوله ولا بالأنداد، والمراد منها هي الأصنام والأوثان.

ويظهر من كثير من الفقهاء جواز الحلف بغير الله غير أنهم اختلفوا في وجوب الكفارة عند الحنث، وهذا يعرب عن تصافقهم على جواز الحلف وإنما الاختلاف في انعقاده وكفارته، وإليك بعض النصوص:

قال ابن قدامة: الحلف بالقرآن أو بآية منه أو بكلام الله يمين منعقدة تجب الكفارة بالحنث فيها، وبهذا قال ابن مسعود، والحسن وقتادة ومالك والشافعي وأبو عبيد وعامة أهل البيت.

وقال أبو حنيفة: وأصحابه ليس بيمين ولا تجب به كفارة. (١)

وقال ابن قدامة في موضع آخر: ولا تنعقد اليمين بالحلف بمخلوق والأنبياء وسائر المخلوقات ولا تجب الكفارة بالحنث فيها، وهذا ظاهر كلام الخرقي وهو قول أكثر الفقهاء، وقال أصحابنا: الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة. (٢)

نعم اتفق الفقهاء على أنه لا تفض الخصومات عند القاضي إلا بالحلف بالله.

---

١. المغني: ١١ / ١٩٣، كتاب اليمين.
٢. المصدر نفسه: ١١ / ٢٠٩.

- ١٢ -

تسمية المواليد بإضافة العبد إلى غير الله سبحانه

لقد تعارف لدى المسلمين تسمية أولادهم بعبد الرسول وعبد الحسين وما ضاهاهما ويجمع الكل اضافته إلى أسماء الرسول وأئمة الإسلام.

وربما وقع ذلك ذريعة للسؤال عن جوازه، فنقول:

تطلق العبودية ويراد منها أحد المعاني التالية:

١. العبودية هي التي تقابل الألوهية، وهي بهذا المعنى ناشئة من المملوكية التكوينية التي تعم جميع العباد، ومنشأ المملوكية كونه سبحانه خالقا، والإنسان مخلوقا.

وعلى ضوء ذلك فالعبودية إذا كانت رمزا للمملوكية الناشئة من الخالقية، فهي لا تضاف إلا إلى الله سبحانه كما يقول سبحانه: * (إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا) *. (١)

وقال سبحانه حاكيا عن المسيح: * (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) *. (٢)

---

١. مريم / ٩٣.

٢. مريم / ٣٠.

٢. العبودية الوضعية الناشئة من غلبة إنسان على إنسان في الحروب وقد أمضاها الشارع تحت ظل شرائط معينة مذكورة في الفقه.

فأمر الأسارى – الذين يقعون في الأسر بيد المسلمين – موكول إلى الحاكم الشرعي فهو مخير بين إطلاق سراحهم بلا عوض أو بأخذ مال منهم أو استرقاقهم.

فإذا اختار الثالث فيكون الأسير عبدا للمسلم، ولذلك ترى أن الفقهاء عقدوا بابا باسم " العبيد والإماء ".

قال سبحانه: * (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) *. (١)

تجد أنه سبحانه ينسب العبودية والإمائية إلى الذي يتملكونهم ويقول " عبادكم وإمائكم " فيضيف العبد إلى غير اسمه جل ذكره.

٣. العبودية بمعنى الطاعة وبها فسرها أصحاب المعاجم. (٢)

وهذا هو المقصود من تلك الأسماء فيسمون أولادهم باسم عبد الرسول أي مطيع الرسول وعبد الحسين أي مطيعه وكل مسلم مطيع للرسول والأئمة من بعده ولا شك أنه يجب إطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم و أولي الأمر..

---

١. النور / ٣٢.

٢. لسان العرب: مادة عبد، وكذلك القاموس المحيط في نفس المادة.

قال سبحانه: * (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) *. (١)

فعرف القرآن النبي مطاعا والمسلمين مطيعين، ولا عتب على الإنسان أن يظهر هذا المعنى في تسمية أولاده وأفلاذ كبده.

نعم المسمى بعبد الرسول هو عبد للرسول وفي الوقت نفسه عبد لله أيضا ولا منافاة بين النسبتين لما عرفت من أن العبودية في الصورة الأولى هي العبودية التكوينية النابعة من الخالقية ولكنها في الصورة الثانية ناجمة عن تشريعه سبحانه حيث جعل النبي مطاعا وأمر الناس بإطاعته وشتان عندما بينهما.

والحمد لله رب العالمين

جعفر السبحاني

قم – الجامعة الإسلامية

---

١. النساء / ٥٩.